قولي في المرأة

بقلم

مصطفى صبري

بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي

الجفان والجابي للطباعة والنشر

دار ابن حزم

ترجمة المؤلف

مصطفى صبري

(١٢٨٦ - ١٣٧٣هـ = ١٨٦٩ - ١٩٥٤م)

مصطفى صبري : من علماء الحنفية . فقيه باحث . تركي الأصل والمولد والمنشأ . ولد في توقات (مدينة في شمال تركية على نهر قزل أرمق) وتعلَّم في قيصرية (مدينة تركية ، تقع إلى جنوب غرب توقات في الأناضول) . وعُيِّنَ مدرساً في جامع محمد الفاتح في إستانبول وهو في الثانية والعشرين من عمره . ثمَّ تولّى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية . وقاوم الحركة الكمالية (أي : ما نادى به وقرّره كمال أتاتورك) بعد الحرب العالمية الأولى . وهاجر إلى مصر بأسرته وأولاده سنة ١٩٢٢م .

أفضل مصدر يحدثنا عن حياته هو ما ذكره في أوَّل كتابه « موقف العقل » حيث يقول :

إلى روح والدي . . .

كان أعظم أمانيك في أمري . . رحمة الله عليك وعلى والدتي التي لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى ، حتى أني كنتُ أقنعتها قبلك - وأنا في ملتقى الشباب والصبا - بأن تأذن لي وتستأذنك في السفر لأول مرةٍ إلى قيصرية المشتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول . . . كان أعظم أمانيك أن أجتهد في طلب العلم وأصبح عالماً من علماء الدين . وكنتَ في رغبتك هذه أشدّ شرهاً

من المنهومَيْنْ(١) ، حتى إنك لما أتيت الإستانبول من بلدنا توقاد ، ورأيتني مدرِّساً في جامع السلطان محمد الفاتح ـ الذي كان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة ، وأفضل من الأزهر الحاضر ـ وأنا يومئذٍ في الثانية والعشرين من عمري ، قلتَ لبعضِ أصدقائك عني : « استأذنني لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية(٢) فما لبث أن حصل على شهادة العالِمية وتربّع على كرسي التدريس . وكان الواجب عندي أن يستمرّ في التعلّم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

وقد كنتَ رحمك الله على حق في استقلال مكتسباتي العلمية ، لكن استعجال القدر في أمري ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرني من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثاني ما لم يسرّك من موقفي يومئذ أني توليت وظيفة التدريس بمرتب من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذي ثروة تكفلني وأسرتي المستقبلة . وبالقياس على هذا لا أرتاب في أنك لو كنت حيّاً يوم تولَّيْتُ منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية ما ازددتُ مكانة عندك وحصولاً على مرضاتك .

ولكنك لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسَائر مشخصاتها ، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح ، معانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب ، ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادىء ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين ، غير محسّ يوماً

---

(١) « منهومان لا يشبعان : طالِب عِلْمٍ وطالب دنيا » . « الحديث » .

(٢) أخذت العلم في القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدوريكي الشهير بداماد الحاج طرون أفندي ، وقبلها في بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذي في القيصرية الشيخ أحمد أفندي زولبية زاده إلى آخر التصوّرات من شرح الشمسية للقطب الرازي ، وأخذت في الآستانة عن محمد عاطف بك الإستانبولي وعن أحمد عاصم أفندي الكوملجنوي الذي كان وكيل الدرس في المشيخة الإسلامية ، والذي زوّجني بنته بعد أن تولَّيْتُ التدريس . فأولئك أساتذتي وشيوخي تغمَّدهم الله برحمته .

بالندامة على ما ضحَّيْتُ به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها ؛ لأوليتني إعجابك ورضاك .

وهذا الكتاب الذي وضعته في سنواتي الأخيرة ، سنوات التوقف في المهجر عن الجهاد السياسي ، متفرِّغاً للجهاد العلمي الديني ، والذي كتبت فيه ما يحتاج المتعلِّم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسْلَم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصري وناضَلْتُ أشتاتاً من أهل العلم والأدب في الشرق والغرب أحياءً وأمواتاً[1] . وقد توغلت في طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمةَ قلمي عند الكتابة . . . هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع مني بعد طلب العلم ، وأنا أحتسب في رضاك هذا رضى ربي سبحانه وتعالى[2] .

ومن المصادرالنّادرة التي نسْتَمِدُّ منها ترجمةً لحياتِه ، كتاب الدكتور محمد محمد حسين « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ، نقلاً عن الأستاذ إبراهيم بن مصطفى صبري المتوفى في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٩م ، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة الإسكندرية سابقاً إذ يقول : غادر الشيخ مصطفى صبري الآستانة فراراً من الكماليين قبيل استيلائهم عليها سنة ١٩٢٣م ، فحضر إلى مصر ، ثم انتقل إلى ضيافة الملك حُسَيْن في الحجاز . ثم عاد إلى مصر ، حيث احتدم النقاش بينه وبين المته ُمبين لمصطفى كمال ، فسافر إلى لبنان ، وطَبَعَ هناك كتابه « النكير على منكري النعمة » ، ثم سافر إلى رومانية ، ثم إلى اليونان ، حيث أصدر جريدة « يارن » ومعناها : « الغد » . وظلَّ يصدرُها نحو خمس سنوات ، حتى أخرجته الحكومة اليونانية بناء على طلب الكماليين . فاستقرَّ في مصر إلى أن توفي بها سنة ١٩٥٤م =١٣٧٣هـ .

(١) وبعضهم كانوا أحياء في أثناء تأليف الكتاب ، ثم ماتوا قبل نشره .
(٢) « رضى الرب في رضى الوالد » . « الحديث » .

وقد بدأ مصطفى صبري نشاطَه السياسي بعد إعلان الدستور الثاني سنة ١٩٠٨م إذِ انْتُخِبَ وقتذاك نائباً عن بلدته توقاد في الأناضول ، فبرَزَ اسمهُ وقتذاك لمقدرته الخطابية ، ولم يلبثْ حين تبينَّ سوءَ نيَّة الاتحاديين أنِ انضَمَّ إلى الحزب الذي تألَّف من الترك والعرب والأروام الذين يعارضون النزعة الطورانية التي اتَّسَمَ بها الاتحاديون وقتذاك . وكان نائباً لرئيس هذا الحزب المعارض .

ولما استَفْحَل نفوذُ الاتحاديين فرَّ من اضطهادهم سنة ١٩١٣م ، فأقام في مصر مدة ، ثم تنقَّل في بلاد أوروبة ، حتى عاد إلى الآستانة مقبوضاً عليه عند دخول الجيوش التركية إلى بوخارست في الحرب العالمية [الأولى] ، حيث كان يقيم لاجئاً إليها وقتذاك . وقد ظلَّ معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة تركية ، وفرَّ زعماء الاتحاديين ، فعاد إلى نشاطه السياسي في الآستانة ، وعُيِّنَ شيخاً للإسلام وعضواً في مجلس الشيوخ العثماني ، وناب عن الصدر الأعظم في رياسة الوزارة أثناء غيابه في أوروبة للمفاوضات . وظلّ في منصبه إلى أن استَوْلى الكماليون على العاصمة ، ففرّ إلى مصر[1] .

من مؤلفاته بالعربية :

- « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين » أربعة مجلدات ؛ القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٥٠م وما بعدها .

- « موقف البشر تحت سلطان القدر » القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٣م ، ٣٠٠ صفحة .

- « النكير على مفكري النعمة في الدين والخلافة والأمة » .

- « مسألة ترجمة القرآن » ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥١هـ (١٩٣٢-١٩٣٣م) . ١٤٦ صفحة .

- « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ١٩٤٢م ، ٢٢٤ صفحة .

(١) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » جـ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١

وله مؤلفات بالتركية كثيرة ، بعضها مطبوع .

مصادر ترجمته :

مقدمة « موقف العقل والعلم والعالَم » ، مجلة « الهداية الإسلامية » ٣٣٣/٤ ، « الأعلام » للزركلي ٢٣٦/٧ ، الصحف المصرية ١٩٥٣/٣/١٣م .

هذا الكتاب :

هو نص مقالتين نشرتا في صحيفة « الفتح » ، ثم نشرتا معاً ككتاب سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م في المطبعة السلفية بالقاهرة .

تمثّل هاتان المقالتان وجهة نظر المنادين بالحجاب والمدافعين عن أحكام تعدّد الزوجات ، وهي وجهة نظر جديرة بالبحث خاصة وأن الطرف الآخر يعرض ما يريد إلى الآن إن من حيث العمل والفعل أو من حيث القول والكلام ؛ إذ ما زالت هاتان المسألتان تشغلان الحياة في العالم العربي والإسلامي .

والكاتب مصطفى صبري ينطلق في ما يكتبه من عقيدة إسلامية ، ورؤية واضحة ، وعزة وكرامة وشخصية قوية ، ويقول ما يقول بعد تجربة مريرة عاناها من خلال ما رآه في تركية الكمالية ، فهو يحذر وينبّه بكل صدق وإخلاص الظاهر من خلال كلامه . في جميع الأحوال ، فالكتاب وجهة نظر إسلامية حول قضيتي تعدّد الزوجات والسفور ؛ جديرة بالقراءة والإطلاع كي يُعرفَ رأي المسلمين في هاتين القضيتين .

هذه الطبعة :

هي إعادة لما نشر عام ١٣٥٤هـ ، بزيادة ضبطٍ . نرجو أن نكون يسَّرْنا نصاً مفيداً ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بسّام عبد الوهّاب الجابي

المقـــدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، فقد كانت مسألة المرأة قبل زمان غير بعيد أعظمَ فارقٍ بين الشرق والغرب والإسلام وغيره في المجتمع ، حتى أنّه لم يكنْ يخطرُ بالبال أنْ يجدَ الغربُ في مرأته المكشوفة مُقَلِّداً من الشرق المسلم المشهور بِغيرَتِه على نسائه مهما قُلِّد في غيرها ، لكنَّ الأسفَ أنَّ غيرتَهُ على نسائه زالت مع غيرَتِه على إسلامه ، وربَّما كان زوال الأُولى جزاءً من الله تعالى في الدنيا على زوال الثانية .

ثم إنَّ مَنْ نظرَ إلى مظاهر الغَرْبِ يحسب أهلَه يعبدون المرأة ويجلُّونها بهذا الحدّ ، ومنْ هذه المظاهر اعتُبِرتِ المرأةُ الشرقيةُ مقهورةً منكودةَ الحظّ ، لكن الحقيقة أنَّ الغربيين ومقلِّدتَهم منا يعبدون هوى أنفسِهم في عبادة المرأة ، وما إجلالُ الرجل العَصْريّ المرأةَ وتقديمُه إيّاها على نَفْسِه إلا نوعاً من الضَّحك على ذَقْنِها لمخادَعَتها وجعلها أداة اللهو واللَّعِب ، كما أن إخراجها من خُدُورِها وستُورِها معناه إنْزالها من عرشِها المنيع الى أسواق الابتذال ، حتَّى إنَّ اشتراكها في أعمال الرجال الذي هو معدودٌ من انتصارها وفوزِها بالحقوق التي تخوِّلها إيّاها مساواتُها المُدَّعىَ لها بالرجل ، ما هو إلا احتمالُها لأعباءِ الحياةِ القاسِيَةِ التي لم يَقُم رجالُ الشرق بها بعدُ حقَّ القيام فضلاً عن نسائِهِ ، مع أنَّ احتمالَها لتلك الأعباء

يقَعُ بطريق مزاحَمَتِها فلا جرم أن عدم قهرِها يكون مبنيّاً على مسامحة الرجال لها مقابل استفادتهم من أنوثَتِها ، وفيه ابتذال المرأة ، وقد كانت هي في الشَّرْقِ خيرَ عَوْنٍ للرجل ، تساعدُه في داخل بَيتِه ، وتشترك معه في أعمال الحياة ، وهي ملكةُ دَوْلَةِ العائِلَة زوجةً أو أماً . وكلامنا في جنس المرأة الشرقية المسلمة الحائزة لحقوقها ، فلا يُعْتَرَضُ علينا ببعض الزوجات المنكودة الحَظّ من أزواجٍ ظالمين قساةِ المعاملة مع أهليهم ، فالواجب إصلاح حالاتهنّ في دائرة المدنية الإسلامية ، وليس الشرعُ بعاجزٍ عن تأديب الظَّلَمَةِ مهما كانت صفاتهم .

فالمرأةُ الضعيفةُ في القِوَى الجسمانية الضعفُ الذي هو مُعْتَرَفٌ به في قول أفلاطون الحكيم عن مساواتها بالرجل ، ذلك القول القديم الذى تمسَّكَ به أنصار المرأة الحديثة ، وسيأتي ذكرُه في مقالة السُّفُور والاحتجاب[1] ، إنْ كانت مضطهدةً عند كَوْنِها زميلةَ الحياة للرجلِ ومساعِدَتَهُ في بيته كما هو موقف المرأة الشرقية المسلمة ، فَلأَنْ تكونُ مضطهدةً ومقهورةً عند كونها مزاحِمَتَه في أعمال الحياة وطُرِق المعيشة أولى ، وليس لها موقفٌ حر ممتازٌ خالٍ عن الاضطهاد إلا موقف كونها أداة اللَّهو واللَّعِب للرجال ، فالذين يعملون لحرِّيَّةِ المرأة الشرقية كأختها الغربية يشوبون موقف مزاحمتها بهذا الموقف الأخير المُزْرِي ، فيزعمون لها السلامةَ من الاضطهاد في موقف المرأة أيضاً ، كما أنَّ السفوريين يحاولون أنْ يُكْسِبوا المرأةَ مكانةً بأن يكون الرجال الأجانب عنها ، الذين يرونها ويخالطونها ، مزاحمين لزَوْجِها عليها .

وفي مَذْهَبِنا أن ضَعفَ المرأةِ في القوَّة الجسمانية المعتَرَف به عند معارضينا مع طماعِيَةِ الرجال فيها طَبْعاً وعدم استغنائها عنهم ، ثم بقاء الأثر فيها من الاقتران بالرجل ؛ كلُّ ذلك يَمْنَعُ استقلالَها في الحياة ، ويَحْتِمُ عليها أنْ لا تعيش فَرْداً ، وأن لا تكون عُرضَةً للرجال ، وأن تَنْحصِر لواحدٍ منهم ، وتتجَنَّب كلَّ ما يُخِلُّ بهذا الانحصار من قريب أو بعيدٍ .

---

(١) الصفحة : ٥٩ .

هذا إجمال ما تحتويه المقالتان الآتيتان في مبدأ تعدُّدِ الزوجات وفي السفور والاحتجاب ، المسألتين اللتين لا يزال يدور حوليهما النقاش بين الفئة المتمسِّكِين بدينهم وتقاليدهم ، وبين الفئة العائشين بأبدانهم في الشرق وقلوبهم في الغرب ، وسيرى القارىء بعد ما أحاط بالمقالتين عِلْماً ؛ أنَّ العَقل والنَّقْلَ والفضيلة كلَّها تؤيد الفئة الأولى ، إلاّ أن الفئة الثانية على أبصارهم غشاوة من الشهوات ، وفي أعناقهم أغلال التقليد القائلة : إنا وجدنا قدوتنا وقبلتنا الغربيين على أمَّةٍ ، وإنا على آثارهم مهْتَدُون .

فلا تحسبوا أن الأوَّلين مقلِّدون لآبائهم ، وقائلون : إنا وجَدْنا آبائنا على أمَّة . . الخ ، والآخرين مستدلّون ماشون في طريقة العقل والتفكير ولو قالوا لكان لهم بعض المعذرة ، حيث أنَّ تقليد الآباء أقرب إلى الرشد من تقليد الأجانب ، مع أن تقليدهم أعمى خالص العَمى في حين أنَّ تقليد الأولين له من العقل والفضيلة نصيران .

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

مبدأ تَعَدُّدِ الزَّوجات

معلومٌ أنَّ مسألة المرأةِ لا زالت أعظم المسائل الاجتماعية في الأعْصُرِ الحديثة ، وأكبر ما تفْترق به الحضارة الغربية عن حضارة الإسلام ؛ ولا زال تعدُّد الزوجات أوّل ما يُنتقد به الإسلام ، وأشهر نواحي الضَّعف الذي يُلْتاثُ به نظر الغربيين ومن ينظرون الأمور بمنظارهم من المسلمين ؛ حتى إذا عَنَّ لبعضهم الاعتذار عن حُكْم دينهم فيه ، كانت غايةُ ما يَتَمَسَّكُ به أن تَعَدُّدَ الزوجات ليس بضروريّ في الإسلام ، وأن جوازَه محاطٌ بشروط تجعله مستحيل الوقوع ويفوتُه أنَّ الاعتراف بجواز تَعَدُّدِ الزوجات مبدئياً ضروريّ للمسلم ، وأن شروطَهُ لا تجعله مستحيلاً ، وإلا كان تشريعه عَبَثاً ولَغْواً ، وكان فعل الصحابة العاملين به معدوداً من طَلَبِ المُسْتَحيل .

وقد كنتُ أشْبَعْتُ الكلام عن هذه المسألة في كتابي الذي أَلَّفْتُه قبل ثلاث عشرة سنة باللغة التركية ، ولما كان البحثُ والنظرُ فيها من بعضِ الكاتبين مستأنَفاً في الأيام الأخيرة على صفحات بعض الجرائد ، أردتُ أنْ أقول قولي فيه .

إنّ ما يرْمي إليه الإسلام في معاملة النكاح والزواج هو النسل وقضاء الحاجة البشرية إلى المناسبات الجنسية بشَكْلٍ مشروعٍ . ولا يَبْتعِدُ جميع الأديان وقوانين الحضارة في مَرْماها عن هاتين الغايتين ، فيفهم أنّ الدين والعقل مجمعان على مراجعة الشكل المشروع في المناسبات بدلاً من غير مَشْروعها ، ومتى دَعَتْ حاجةُ أي رَجُلٍ إلى الاقتران بأية امرأة فلا سبيل إليه عند العقل والنقل إلا سبيله المشروع ، أي : الزواج . وما دام في الدنيا رجلٌ لا يكتفي بما عنده من زوجة وحيدة ويبحث بعينه ورِجْلِه عمَّن عداها ، فالاعترافُ بمبدأ تعدُّد الزوجات

ضروريٌ إلاّ لَمَنْ يشذّ عن طريق العقل والنقل ويبيح الزِّناَ ، أو لمن يغضّ بصره عن الحقائِق وينكرُ وجودَ الزُّناةِ في الدنيا بين الرجال المتزوِّجين ، أو لِمَنْ يتقاصر حِجَاهُ عن إدراك التلازم بين منع تعدّد الزوجات وإباحة الزنا لِبَعْضِ الرجال .

فهذا القَدْرُ من الكلام يكْفي تغليب حُجَّة القائلين بمدأ تعدُّدِ الزوجات وإدحاضِ حُجَجَ المعارضين من دون حاجة إلى إطالة النقاش ، وإني لا أَبْرَحُ على طول طريق المناظرة أتعلَّقُ بالمقارنة بين النِّكاح والسِّفَاح، وأكتفي بترجيح تعدّد الزوجات للذين تسوقهم شهواتُهم إلى الاستمتاع بأيِّ امرأة لا يحلُّ لهم ذلك في نظر الشرع ، سواءٌ كان استمتاعُهم بوِقاعِها أو بتَقْبيلها أو مخاصَرَتِها أو النظرِ إليها ، وأخَصُّ هؤلاء اللصوص لصوص الأعراض بوضعهم موضع الخلاف بين أنصار تعدُّد الزوجات وأعدائه ، فالإسلام عفيفٌ ، لا يبيح استمتاع الرجال بغير نسائهم اللاتي يوجد بينهم وبينهن عقد شرعي ، فإذا شعروا بحاجة إلى ذلك يجب عليهم أن يأتوه من بابه ، ويتوسَّلوا إليه بعقود ثابتةٍ، فيعلمُ الشرع ويعلمُ الناسُ أنَّ هـــذه المرأة زوجةٌ ثانيةٌ لهذا الرجل ، ولا يرضى الإسلام أن يَدَعَ علاقات الرجال بالنساء سَرِقات ، ويدَعهن صَيْداً لِمَنْ قَنَصَ أو مَلْعَبَةً للفُسَّاق . زَوْجَة ثانية ! نعم ، هذا الاسم يَثْقُلُ على أَلسنة المفتونين المُسْتَبْدِلين بعقلياتهم وآدابهم الاجتماعية عقلِيّات الغربيّين وآدابهم ، المشترين الضلالةَ بالهدى . ولَيْتَ شِعْرِي ! كيف يجدونَهُ عند المقارنة باسْم المَزْنيِّ بها ، التي يُعَبِّرُون عنها بالخَليلة سَتْراً لِمَعَابَتها وتخفيفاً لفضاحتها ؟! ولا يَعْتَرِفُ الشرعُ ولا القانونُ بهذه الخِلَّة ، ولا يُجْهَرُ بها في المجتمع ، وإنَّما يتهامَسُ بها الأخِلاّء - أي : الزُنَاة - فيما بينهم .

ولقد دهشتُ عندما قَرَأتُ قولَ أحد الكاتبين بهذا الصَّدَدِ : « لو سَألْنا أيَّ امرأةٍ : هل تُفَضِّل أنْ ترى زَوْجها يتزوَّج من امرأةٍ أخرى أو يخادنها فقط ؟ لقالت : بل أفضِّلُ أن يخادِنَ ألف امرأة غيري ، لأنّه قد يعود إلى صوابِهِ فيعود إليّ وحدي » .

وأنا أقول : ماذا عَسى ان يكونَ قَدْرُ امرأةٍ تفضِّلُ أن تكون زوجةَ رَجُلٍ يخادِنُ ألفَ امرأة على كَوْنها الزوجة الأولى لرجلٍ عفيفٍ ؟ وماذا يكون قيمَةُ قَولِ تلك المرأة الساقِطَة الحِسِّ والشعور بهذه الدرجة وقيمة تقديرها الرجال ، وهي لا تقدِّرُ العِفَّة قَدْرَها ؟ أفَمِثْل هذه المرأة يَنْصِبُها الكاتِبُ حَكَماً ويجعل قولَها الفَصْلَ في مسألة هامةٍ اجتماعية كهذه ؟! وهل يمكن أن يقولَ أحدٌ من الرجال : لا أمنع امرأتي أنْ تخادِنَ ألفَ رجلٍ ، فحسبي أنَّها قد تعود إلى صوابها وتعود إليّ ؟!.

وإني قد كنتُ قبل خمس وعشرين سنة أنشأت قصيدةً تركيةً موضوعُها تحاورُ امرأتين ، ونَشَرتها في صحف الآستانة تحدِّياً لمقلِّدي الغَرْب المُسْتَهْجِنين لمبدأ تعدُّد الزوجات ، فعبَّرْتُ فيها ـ بلسانِ إحدى المتحاورتين ـ عن المرأة التي يتزوج بعلها بامرأة ثانية فلا ترضاه ، ولا يَشُقُّ عليها أن يخادِنَ النساء فترضاه ؛ بامرأةٍ ذات قَرْنَين .

ولو سألتُ الكاتبَ الذي يَصِفُ في أوَّلِ مقالته أعداء تعدُّدِ الزوجات بأنهم حاملو لواء المدنية : هل فيهم هذه المرأة التي يُحكى عنها أنها تبيح لزوجها أن يخادن ألف امرأة فتحمل ألفَ قرن ؟! .

ومَنشَأُ استسهال الكاتِب تقويلَ أيِّ امرأة بذاك القول تَفَشِّي الفِسْق بين الرجال ، حتى عَمَّتْ بَلِيَّتُهُ ، فهانَ على النساء اختيار أزواجِهن من الفُسَّاق ، وهان على الرجال أن يُحَبِّذُوا هذا الاختيار .

والكاتِبْ يَعُدُّ الرجلَ الذي يُعْقِبُ أولاداً من زَوْجَتَيْن آثماً ، فكأنَّ أولاد الزوجة الثانية أعداءٌ يُدْخِلهُم الرجلُ في الأسرة ، ولا يعدُّه آثماً إذا أدْخل فيها وَلَدَ زَنْيَة ، ولعلّه يتغاضى عنه كما تتغاضى الزوجةُ عن خليلَةِ زَوْجِها ووَلَدِه منها ، أو يعتبرهما في حُكْمِ العَدَم كما اعْتُبِرَت هي ، لأنهما مجهولان عندها وعند الناس ومعدومان . ولقد دَقّ نظر الإسلام حيث رأى في الزِّنا قَتْلَ نَفْسٍ وإعدامَها ، وجازاه بمثله .

أمّا ما ذكَرَه مِنْ معاداةِ بَني العَلّات[1] بعضِهم بعضاً ، فمنشأ ذلك نقصان التربية الدينية الواجب تدارُكه . وماذا يقول الكاتب فيمَن يحاذِيهم من بني الأخْيَاف ؟[2] وفي المعاداة المُمْكِنَة الوقوع فيها بينهم ؟ فهل يُتَصَوَّر سَنُّ قانونٍ يمنع زواج امرأة ماتَ عنها زوجُها أو طلَّقَهَا بزوج آخر لئلا تَلِدَ منه أولاداً يعادون مَن وَلَدَتهم من الزوج الأوّل كما يتصوَّر سنّ قانون يمنع تعدّد الزوجات ؟ بل هل يتصور سَنُّ قانونٍ يمنع الرجال بعد موت زوجاتهم أو مفارقتهن بالطلاق ، أن يتزوّجوا مرةً ثانية ، فيلدوا بني العَلّات ، ويحصل بينهم المعاداة ؟

فَقدْ ظهر أنَّ أعداء تعدُّد الزَّوْجات الذّين لا زالوا يتعَقَّبون ما فيه من المحاذير الاجتماعية ويتَتَبَّعونها ، يمكن معارضتهم في كلِّ خطوةٍ بالزنا وما فيه من المضار والويلات ، ثم لا يُمْكِنُ عند العقل السليم تفضيل الزِّنا عليه وتفضيل وَيْلاته على تَبِعاتِه ، ولذا قال مظهر عثمان بك الطبيب التركي الكبير الأخصائي الشهير في الأمراض العقلية والعصبية في كتابه المسمى « الطب الروحي » :

« الاكتفاء بالزوجة الواحدة (Monogamie) على ما يُرى في أوروبة إنّما هو مظهرٌ (Etiquette) كاذِبٌ بعيدٌ عن الحقيقة ، فقد تَبيَّنَ أنّه لا يمنع الفسق ، فالأَوْلى أن نَحْتَرِمَ تعدُّدَ الزوجات المشروع في ديننا بدلاً من أن لا نَكْتَرِثَ بهذا التوسُّعِ الضروري في الفِسْق والفجور » .

وتكلَّم الكاتب المعارِضُ في عدَدِ الرجال بالنسبة إلى النساء ، وقال : « إن قامَتْ حَرْبٌ وماتَ فيها عددٌ كبيرٌ من الرجال ، أمكننا حينئذ أن نرجع إلى ديننا وإلى تطبيقه بحسب اختلاف الزمان » وإنّي أوصيه بالرجوع إلى دينه من غير تَرَيُّثٍ ، وقد قلت في كتابي المذكور :

(١) أولاد الرجل من أمهات مختلفات .

(٢) أولاد المرأة من آباء مختلفين .

« بناءً على كون عَدَدِ النساء أكثر من الرجال ، أو تقليل الحروب عددهم ، أو عدم رغبة بعض الرجال في الزواج ، أو رغبة بعض النساء الحرَّةِ في اختيارها في الزواج ببَعْضٍ مُعَيَّنٍ من الرجال المتأهِّلين ، بناءً على أيِّ سَبَبٍ من الأسباب ؛ فقد توجَدُ امرأةٌ يمكن أن تكون زوجةً ثانية لأيِّ رَجُلٍ حتى يتحقَّق تعدُّدُ الزوجات في ساحة الوقوع ، وحَسْبُكَ هذه المرأة زائدة في المقارنة بين عدد الرجال والنساء ، فإنْ لَمْ توجدْ تلك المرأة فلا محلّ حينئذٍ لتعدُّد الزوجات ، ولا لشكاية الشاكين منها ، ثم إن دفاعي عن تعدُّدِ الزُّوجات لَمَّا كان بالنسبة إلى الزِّنا والسِّفاح ، ففي استطاعتي إثبات زيادة النساء على الرجال بوجود نساءٍ في كل بلدة يعشْنَ ببَيْع أعراضِهِنَّ ، من غير حاجة إلى سَوْق المسألة إلى أودية بعيدةٍ ، ولا عليَّ أنْ أُثْبِتَ كونَ هذه النساء زائدات في المقارنة بين نفوس الذكور والإناث بكلِّ بلدةٍ يوجدن فيها ، فهاهُنَّ ظاهراتٌ فيها بمظهر الزيادة ، فعلى الرجال الذين لا مندوحة لهم عن الاقتران بهنّ أن يتزوّجوهنّ سواء كانوا متزوِّجين قبل ذلك أو عزّاباً ، ويجعلوا ما يعطونهن ثمن العِفَّة نَفقةَ الأهل . إنِّي أُلْزِمُهُم ذلك ، ولا يرضاه المعارضون لأنهم يحاولون أن يبقى الرجال دَوْماً بموقف يسهل عليهم تبديلهُنَّ غيرهنَّ ، وبه يظهر أنَّ المعارِضِين لا يرضون التحديد الذي يتضمنه تعدُّد الزوجات ، بالرغم من أنهم يَشْكُون التعدُّد ، ولذا قال أحد أدباء أوربة : « إنَّ للمسلمين أنْ يَفْتَرِشوا النساء إلى أربع ، وللغربيين الذين يعدُّون أنفسهم أرقى مدنيةً منهم أن يفترشوهنَّ إلى ما شاءوا من العَدَد » .

« وكأنِّي بالمعارضين يتعجَّبون من قولي ، ويقولون : كيف يتزوّج كلُّ رجلٍ مِنَ التي أراد أن يزني بها ؟ وربَّما تكون من المُومِسات ، وتسكن بيتاً من بيوت الدعارة الجهرية أو السرية ، وتعرض نفسها على مَنْ طَرَقَ بابَها ؟ فكيف تتفق الكرامة وهذا الزواج ؟ ولكنِّي أعودُ فأزيدُ في تعجُّبهم قائلاً : إنَّ الزواجَ منها لا يُخِلُّ بالكرامة الإنسانية قدرَما يُخِلُّ الزنا بها ، وإنَّ الرجلَ مهما بَلَغَ من الكرامة

فهو يسقطُ في درك امرأةٍ يريد أن يَزْنِي بها ، لكن الزَّواج لا يحطُّ من كرامة الرجل ، وإنما يعلي المرأةَ ويُنْجيها من سَقْطَتِها » .

أما قول الكاتب : « ومِنْ حَقِّ المرأة أن تَسْتأثِرَ بزوْجِها ، وان تستاثر بِحُبِّه وانْ تقول له في علانية : إنْ أنْتَ ضَمَمْتَ إلى صَدْرِكَ امرأةً اخرى فلسوف أضُمُّ إلى صَدْري رجلاً آخر ؟! فإنَّ العين بالعين والسن بالسن » وكان هو قد حكى عن أيِّ امرأة فَرَضْنا انَّ سألناها انَّها تفضِّل أن يخادِن زوجها ألف امرأة غيرَها على أن يتزوّج من امرأة ثانية كما سبق نقله منا مع التعليق عليه ؛ فعند الجمع والتوفيق بين هذين القولَيْن ، تكونُ النتيجةُ أنَّ تلك المرأة التي يخادِنُ زوجُها الفَ امرأة سوف تضمُّ إلى صَدْرِها الفَ رَجُلٍ ، لأنَّ العَيْنَ بالعين والسن بالسن ! بالرغم من إباحتها لزوْجِها تلك المخادنة الغير المحدودة في ضِمْن تفضيلها على تزوُّجِه من واحدة ! ولعلّ تفضيلها ان يخادِنَ على أن يتزوَّجَ لِيُمْكِنُها الاقتصاص منه ، إذ لا يُمْكِنها أن تقول : إنْ هُوَ تَزَوَّجَ بعدي بثانيةٍ وجَمَعَها إليَّ فلسوف أتزوَّجُ بآخر واجمع بين الزَّوْجيْنِ ! لأنَّ القانون لا يأذَنُ لها في ذلك ، ولا تأذَنُ به فِطْرَتُها ايضاً ، لأنَّ بَطْنَها لا يَجْمَعُ بين ولدَيْن من رَجُلَيْن من دون اختلاط الأنساب ، أمَّا الرَّجُلُ فيمْكِنهُ انْ يقْترِنَ بعدَّة نسوة فيحصل منه عدة أولاد من غير وقوع التباس في أبيهم أو أمَّهاتِهم ، وهذا من أبْرَزِ مَيِّزات الرجل التي يمتاز بها على المرأة .

فقد ثَبَتَ أنَّ فجورَ الأزواج يستفزُّ الزوجات ، ويؤدِّي إلى فجورِهنَّ ، أما وجود الفُجّار من الرِّجَال ، فأمرٌ لا يمكنُ إنكارُهُ بالكتمان ، بل لا يُمْكِنُ كتمانه ايضاً ، فالواجِبُ أنْ نتداركه بتعدُّد الزوجات الذي أخذ المسلمون ينسُونَهُ منذ أقاموا مقامه الفِسْقَ .

فإن قال قائل : كيف نَتَدارَكُ الفِسْقَ الفاشي في البلاد بإحياء مبدإ تعدُّدِ الزوجات ، وليس جميعُ الفَسَقَة من المتزوِّجين حتى نُزَوِّجُهم ثانية .

فالجواب عليه : إن الفاسِقَ ، وبعبارة أوْلى : مَنْ رأى نفسَه على شَرَفِ

الوقوع في الفِسْق إن كان عَزَباً فليتزوّج ، وإن كان متزوِّجاً فليتزوَّج ثانية وثالثة ورابعة حتى يحصل له الاستغناء ، فإن لم يحصلْ بالرّابعة وتاق إلى خامسة ، فليطلّق إحدى نسائه وليجعل الخامسة رابعة ، فإن عَدَّ هذه الفعال تلاعباً بالأهل والعيال ، قلت : إن كلَّ ذلك أفضل من الفِسْق ، حنانَيْك ! بعضُ الشر أهوَنُ من بعض .

وإن سألوني عن منابع المالِ اللّازم لهذه الزيجات ، أُريهم منابع المال الذي يُنْفَقُ في سبيل الفِسْق ، وهو أكثر .

ثم إنَّ الرجوعَ إلى ديننا في تَستّرِ النساء وعدم اختلاطهن بالرجال يهدِّئ الأهواء ويخفِّفُ نَهْمَةَ الشهوات ، فيتَّفقان مع تعدُّدِ الزوجات في ممانَعَة الفِسْق ، وربَّما يغْنيان عن تعدُّدِ الزوجات نفسه ، لكَوْنِهِ موضوعاً لمسايرة الفِسْق ومزاحمته .

والدواءُ الثالث ضدّ مرض الفِسْق تسهيل الطلاق إلى حدٍ ما كما أشرنا إليه ، لأن الإسلام شَرَّعَ الطلاق كما شَرَّعَ النكاح ، ولكن العادة الحديثة التي حَلَّت ببلاد الإسلام ، وجَعَلَتِ الطلاقَ من المُحالات ، حتى أنّ الرجلَ المسلم لا تُرضيه قرينَتُه ، فيضطرُّ إلى مرافقتها طول الحياة ! فإذا خَرَجَ من بيته تدورُ عينُهُ على نساء العالم ويَتَنَفَّسُ الصُّعداء ، وربَّما يزني ، ويتحمّل إثمَهُ ولا يتحمل عارَ تطليق امرأته ! هذه العادة انتقلت إلينا من الغَرْبِ ، وقد رأى المُغْرمون مِنّا بتقليد أَهْلِه أَنَّهُم لايملكون طلاقَ زوجاتهم ، وسمعنا منهم اعتراضاً كثيراً على الطلاقِ في الإسلام ، فحرّمناه علينا ! في حين أنَّ أهلَ أوروبة وأمريكة بدأوا يَسعَوْن في تسهيله على أنفسهم ، فأخذوا منّا التُوسِعة ، وأخذنا منهم التَّضْييق ، فلو أنَّ مَنْ سئم مِنْ قرينَتِه حتى احتاج إلى تجديدها بالسِّفاح استفاد بِمَا بيده من استبدال زَوْج مكان زوج لوجد في الإسلام منجاةً من الوقوع في المناهي ، بل ومِنِ اقتحامِ غائِلَةِ تعدد الزوجات ، وربَّما وجدَ سعادةً في زواجه الثاني ووجدَتْ زوجتُهُ القديمةُ التي هي جديدة لِمَن يتزوجّها بعده سعادةً عنده .

ومما يُعينُ على التعفُّفِ عدمُ تصعيب النكاح بتحديد سنّ الزّواج وإرجاء النكاح إلى ما بعد بلوغ الجنسين بِبِضعِ سنين ، ومَنْ يَضْمَنُ لنا أنَّ الفتيانَ والفتيات يُمضون هذه السنوات الطويلة المصادِفَة لِرَيْعان شبابهم وغَلَيان دمائهم في تبتُّلٍ وتعفُّفٍ ؟! وكونهم في دَورِ التعلُّم الذي لا بُدّ أن يُشْغلهم زواجهم عنه لا يُعَدُّ معذرةً لآبائهم في أنْ يعاملوهم بالتسامح والتغاضي عما يَقْضون به حاجاتهم الجنسية ، ولا يعدُّ معذرةً لهم أنفسهم لأنّهم بالغون مُكَلّفون، ولا يُؤْذَنُ لأحَدٍ في الفِسْق بحجّةِ أنّه في دَوْرِ التعلم لا يمكنه الزّواج ، وقانون الإسلام يفرضُ الزواجَ على كلِّ من يخاف على نفسه الوقوع في الفِسْق ، ولا يبيح الوقوع فيه لأحد ولو في سبيل التعلُّم ، وإنما واجبُ المسلمين أن يتدبَّروا ليكتشفوا طريق تأليف التعلُّم مع الزواج للمحافَظَة على عِفَّة المتعلِّمين ، والفِطْرَةُ لا يجوز أن تَجْعَلَ دَوْرَ غُلْواء الشباب يمضي بالعَطالة والعُقْم ، ولا بالإنتاج في طريق غير مستقيم ينتهي إلى العُقْمِ أيضاً ، لكنّا رأينا أنَّ الغربيِّين لا يتزوَّجون في عُنْفُوان شبابهم ، فقلَّدْناهم ، وما فكَّرْنا في أنَّهم لا يبالون بما إذاكان شُبَّانهم يقضون حاجاتهم الجنسية في طُرُقٍ لا تقبَلُها آداب الإسلام الاجتماعية من مخالطة الفتيات ومخاصَرَتِهنّ ومبادلتهن المحبة ، وربّما فَكَّرْنا في ذلك وقلَّدْناهم في عدم المبالاة .

الحاصِل ؛ إن الإسلام يُسرٌ ، يريد بنا اليُسْرَ في المعاملات ، وخِطَّته في معاملة الأزواج مع الزَّوْجات تدورُ على إمساكٍ بمعروف أو تسريحٍ بإحسان ، كما عَبَّر به القرآن ، والنكاح وإنْ كانَ ميثاقاً غليظاً كما عَبَّر به القرآن أيضاً ، وكان الطلاق أبغضَ الحلال إلى الله ، وكان الله لا يحب الذَّوَّاقين والذوَّاقات ، كما وردا في الحديث النبوي ؛ فليس شيء من هذا وذاك وذلك يَلْصَقُ أحدَ الزوجين بالآخر بحيث لا يتمكَّنان من الافتراق كما في أنكحة سائر المِلَل ، فيتولّى الرجلُ الطلاقَ ، وتتولاه المرأة باشتراطه عند عقد الزواج ، وبالمخالعة ، وقد يتولاه الحكمان المبعوثان من أهلَيْهما لإصلاح ذات البين ، لأنَّ دوام رابطة النكاح بين الزوجَيْن مهما كان مطلوباً في الإسلام ومحبوباً فهو مشروط بعدم مخافتهما أنْ لا يقيما حدُودَ الله وهذا

تعبير القرآن أيضاً ، وقد فسروها بحقوق الزوجية التي لهنّ منها مثل الذي عليهن بالمعروف مع ما للرِّجال عليهن من درجة ، وفي التعبير ما لا يخفى من إعظام تلك الحقوق . ثم لا يخفى أن المحافَظة على العِفَّة من الطرفينْ تدخُلُ فيما هو المطلوب حصوله بينهما من إقامة حدود الله دخولاً أوَّلياً ، فعند مخافة التَّعَدِّي من أحدِهما لحدودِ الله يتعيَّنُ الطلاقُ بلُطْفٍ ومعروفٍ وإحسانٍ ، ولا يُعْقَلُ لهما قضاء العُمْر في عَدَمِ التراضي . ويُعَدُّ تعدِّياً لحدود الله من جانب المرأة أن تَمْنَعَ زوجَهَا مِنَ العَمَل بمبدأ تعدُّد الزوجات الذي هو من حقوق الزَّوْج عِنْدَ حاجَتِه إليه .

وهذه الحرِّية من النِّكاح والطلاق ، والسهولة التي يلاقيها الزوجان بصددهما ، جعلتِ الإسلامَ في التوسُّط بين ضيقِ مبدأ المسيحية فيهما ، وفوضى الاشتراكية ، فهو لا يَبْعدُ في مبادئه عن الاشتراك ، فيضمَنُ للإنسانية الفوائدَ التي تنتظرها منه ، ويغني عن إفراطاته ، وفي زكاة الإسلام التي ترى حقاً للفقراء في أموال الأغنياء أدلُّ شاهدٍ على هذا ، كما أنَّ سهولةَ النكاح والطلاق في الإسلام التي تتضمَّن سهولة استبدال زوج مكان زوج هي من هذا القبيل ، أي : مما يقرِّبُ به الإسلام من الاشتراك ، وبهذا التسهيل يكون الإسلام قد اعْتَرَفَ بحاجَةِ الإنسان إلى التجديدِالذي أطلقه الفسقة والاشتراكيون ، والإسلام يراعي التجديدَ مع التحديد ، ويربطه بالنظام ، وكان الأنصار أهلُ المدينة يَنْصرُون المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم أجمعين ، إلى حدّ أنّ مَنْ عنده امرأتان كان ينزلُ عن إحداهما ويزوِّجُها واحداً منهم ، وهذا ممّا يُسْتَشْهَدُ به على سهولة النكاح والطلاق في الإسلام ، وعلى أن المقصود منهما قد يكون الإيثار والتضحية لا الاستئثار .

نرجع إلى تعدُّدِ الزَّوْجات ومقارنَتِه مع التعدُّد من دون زواج ـ الذي يفضِّله المتشبِّعون بعقلية تقليد الأجانب عن الإسلام على التعدد المشروع ـ ويقوّلون

النساء قولهم بالتفضيل . وقد قلت عن هذه المقارنة في كتابي المار الذكر : « إن في التعدُّدِ الغير المشروع ضَرَرَ الزوجِ بفَقْدِ عِفَّتِه ، وضَرَرَ المرأةِ التي اقترن بها بفَقْدِ عِفَّتِها ، وضَرَرَ الزوجة من حيث كونها زوجة الرجل المفقود العِفّة ، وضَرَرَها أيضاً من حيث احتمال أن تَفْقِدَ عِفَّتها انتقاماً من زَوجها ، وضَرَرَ الزوج من هذه الجهة ، وضَرَرَ زَوْج المرأة التي اقترن بها الزَّوج إن كانت متزوِّجة ، وضَرَرَ الزوجة التي تقترن بزوجها الزوجة المنتقمة إن كان متزوِّجاً ، وضَرَرَ الأولاد المضاعة بين المقترنين وقريناتهم وبين المقترنات وقرنائهنّ ، وضَرَرَ كُلٍّ من الطائفتَيْن من الأمراض المُعْدية في هذه الاقترانات ، وضَرَرَ زوجات المُقْتَرِنين وأزواج المقترنات من انتقال العدوى إليهنّ وإليهم . فهذه عَشْرُ مضار قد كَفَتِ الثلاثُ الأخيرة منها في إفساد حال الدنيا الحاضر . ومِنْ حِكْمَةِ الله تعالى أنه يُسلِّط مُعْضلات الأمراض على الاقترانات الغير المشروعة . وفي تعدُّدِ الزوجات مقابلَ هذه العشر ضَرَرٌ واحدٌ خاص بالزوجة ، وهو كون زوجها تزوّج بامرأةٍ أخرى . وهو ضَرَرٌ إن أخلَّ باستئثارها بزَوْجها فلم يُخِلَّ بشَرَفِها ، لأن زَوْجَها استعملَ حَقَّه الذي أعطاه قانون الإسلام كما لو وُلد بعد الوَلَدِ شقيقُهُ فأخل باستئثاره بأبَوَيْه .

ولستَ بالَّذي لا أقدر قَدْر الحُبّ والقلب وما بينهما من صلةٍ تُحيي وتُميت ، ولا قَدْرَ أصحاب القلوب من الأزواج الذين تمنعهم محبَّةُ زوجاتهم ، أو على الأقل رحمتهن ، عن أن يتزوَّجوا عليهنّ ولو كانوا في حاجةٍ إليه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَقَّ لأمتي رَقَّ الله لَهُ » .

وإنما أنا لا أفهَمُ للكتّاب المعارضين الظاهرين بمظهر الرعايةِ والاهتمام بقَلْبِ الزوجة الأولى وحُبِّها ، تسامحَهم مع الخيانة الموجَّهَة إليها وإلى محبَّتها من جانب الزوج الذي يخادِنُ امرأةً غيرَها بدلاً مِنْ أنْ يتزوَّجها ، مع أنّ الاعتداء على القلب في الصنيع الأول أشدّ وأبشع ، لكونه إشراكاً في الحُبّ يتضمَّنُ سقوطَ المُشْرِك والشريكة .

ثمَّ إنَّ تعدّد الزوجات مهما ثَقُلَ على الزوجة الأولى وأضرَّ بها فَفِيه منفعةٌ لأخْرَى من جِنْسِها ، لأنَّه صَيَّرها زوجةً مِثْلها بدلاً من أن تصير خليلةً ساقِطةً ، وإنَّ الإنسانية إنْ نَظَرَتْ إلى تعدُّدِ الزوجات وما يقابِلُه من التعدُّد بشكلٍ غير مشروع ، وهو ما لا بُدَّ أنْ يقومَ مقام التعدُّد المشروع ويملأ فراغه في الحاجة البشرية ، إن نظرت إلى هذا وذاك بعين الإنصاف وجدتْ تعدُّدَ الزوجات أوفق لمصلحة النساء العامة وصلاحهن العام ، والمعارضون ينظرون إلى مصلحة بَعْضٍ منهنّ دون بعض .

وفضلاً عن ذلك ، فإنَّ تعدُّدَ الزوجات إنْ أخلَّ بمساواة الجنسَيْن ، فالرجلُ لا يساوي المرأةَ ، يُنادي بعدم المساواة كونُ فطرةِ المرأة تأبى أنْ تجازي تعدُّدَ الزوجات بتعدُّدِ الأزواج كما ذكَرْنا ، ثم إنها لا تستطيع أنْ تَلِدَ في عامٍ واحدٍ إلا مرةً واحدةً مع أنَّ قوة الإنتاج في الرجل تتجدَّد كلَّ يوم ولا يشغلها شاغل ، والمرأةُ تستغني عن الرجل أيام مَحِيضِها ومَخَاضِها ونِفَاسِها ، وتَهْرَمَ قبل الرجل ، فتنقطِعُ عن الولادة ، ويعتريها القِدَمُ قَبْلَ الهَرَمِ ، فتكون بِكْراً وثَيِّباً ووالِدَة ، فَتَفْقِدُ من طراوَتِها كلَّما مَرَّ عليها دورٌ من هذه الأدوار ، فلو وَقَفْنا الرجلَ والمرأةَ في حَدِّ المساواة إنصافاً للمرأة لكُنَّا ظلمنا الرجلَ الفائِق في فِطْرَتِه ، ألا يرى أنَّ المولود يُفضَّل كونه ذكراً حتّى عند أمه ، وهل لا يدلُّ هذا على اعتراف من جانب المرأة بفَضْلِ الرجل ؟

وإنَّما شاعَتْ دعوى مساواة المرأة للرُّجُل في العصر الحديث تحت حماية بعض الرجال ومحاماتهم عنهنّ لحاجةٍ في أنفسهم ، يحاولون قضاءها بالتقرُّب إليهنّ ، فلو فازَتْ دعوى المساواة فازتْ وهي مساواةٌممنوحَةٌ غير حقيقية .

والنساء في عصرنا يطاولْنَ الرجالَ برفْعِ كعُوب أحذيتهنّ مطاولةً مبنِيَّة على التكلُّفِ وتغيير الخِلْقةِ ، لكنَّهُنّ على خَطَرِ الكبْوَةِ عند السِّباق معهم بتلك الأحذية .

ولأجْلِ ما ذكرْناه من كمال قدرة الإنتاج في الرجال ، حتى أنَّ الرجلَ الواحِدَ لا يُعدُّ له جماعةُ النساء الغفيرة ، كان طريقُ إكثار التناسل في الأمم تزويج رجلٍ واحدٍ عدة نسوة ، أعني : العمل بتعدُّد الزوجات ، ذلك المبدأ الإسلامي الذي ستَحْتاج حكومات الغرب إلى تطبيقه في بلادهم ، لا سيّما بعد تطبيق واحدةٍ منهنّ؛ أما كثرةُ النَّسْل ، فلا شكّ في كونها من أجلْ ما تَرْغَبُ فيه الأمَمُ لاكتساب القوة ، ولا يرتاب في نَفْعِها احدٌ إلا كاتب كتَبَ يوماً فيما تعوَّد كتابته في الأهرام ينهى المصريين عن إكثار الأولاد ، في حين أنّ حكومات الغَرْب تتنافس في إكثار عدد شعبها ، وتكافىء المُكثِرين وتُجزِلُ لهم أنواعَ العطاء ، كما أنَّ نبيّنا ﷺ قال لنا قبل ذلك : « تَنَاكَحُوا ! تَكَثَّرُوا ! فإنِّي أُباهي بِكُمُ الأمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » وإنّي عجبْتُ من شذوذ هذا الكاتب ، الذي نحمَدُ الله على أنَّه لم يتدخَّلْ في نقاش مسألة تعدُّد الزوجات ، فلو تدخَّل لعدَّ كونه سبباً لكثرة النسل من مضارِّهِ .

وأعجبُ منه ما سبَق لكاتب كبير في تركية[1] عند مناظرتي إيّاه في مبدأ تعدد الزوجات من أنّه لم يعترفْ بنَفْعِهِ لكثرة النفوس ، وقد ذكرْتُهُ هنا ليكون أُنموذَجاً لمكابَرَةِ المعارضين في هذه المسألة ، وشاهِداً على وَهْنِ مواضِع أقدامهم لِحَدّ أنَّهُم رُبما يحتاجون إلى تعزيز دعاويهم بما يخالِفُ البداهَة .

ثم إنَّ الرجالَ همُ الذين يتحمَّلون أقسى وظائف الحياة ، ومشاركةُ النساء إيّاهم في بعضها في العصر الأخير بعيد عن المساواة كلّ البُعْد ، يكفيك أنّ أعباء الحروب الأساسية على كواهلهم ، الدماء الجارية فيها كالأنهار دماؤهم، فالأمم إذنْ في حاجة إلى أن تقومَ نساؤهم بتضحيةٍ تتكافأ بعض الشيء مع تضحيات الرجال ، وتلافي ما تُحدث فيهم التضحيات مِنَ النقْصِ ، فينبغي لهنّ أنْ يحارِبْن أنفسهم ويَرِضْنَها لاحتمال تعدّد الزوجات ، فيعوضنَ بهذا الحِمْلِ الثقيلِ ما يضحّيه الرجال بأرواحهم في ميادين الحروب . وما نقلنا عن الكاتب المعارض من

(١) المرحوم جناب شهاب الدين بك .

قوله : « على أنّه إن قامت حرب وماتَ فيها عددٌ كبيرٌ من الرجال أمكننا حينئذٍ أن نرجع إلى ديننا وإلى تطبيقه بحسب اختلاف الزمان » اعترافٌ منه بمَبْدإ تعدد الزوجات ، وبكونِهِ حقاً للرجال عليهنّ حيال الحروب ، صدر منه بغير شعور به ومن غير شعور بأنّ التسويفَ فيه لا يتفق مع المصلحة المعْتَرَف بها ، لأنّ تعدُّدَ الزوجات الذي سوف يطبَّق بعد وقوع حَرب وبعد مَوْت عددٍ كبير من الرجال فيها ، إنّما يأتي بثمراته في عشرات السنين بعد انتهاء تلك الحرب ، والحالُ أنّ الأمّة المتيقّظة من واجبها أن تظلّ عقب انتهائها من حرب قادرة على حرب أخرى ، فيلزمها أن تكون دائماً على استعداد ولا تنتظر أوان الحاجة . وقد كنتُ كَتَبْتُ في تركية قبل خمس وعشرين سنة أنّ تعدُّد الزوجات الذي تحمِلُ النساءُ أثقالَه مقابِلٌ لحروب الرجال . ثمّ رأيتُ حديثاً نبوياً ، وكتبته في كتابي المار الذكر ، وهو : « إنَّ الله كَتَبَ الغِيرَةَ على النِّساءِ ، والجِهَادَ على الرِّجالِ ؛ فَمَنْ صَبَرَ مِنْهُنَّ إيماناً واحْتِسَاباً كان لَهُ مِثْلُ أجْرِ شَهِيدٍ » أخرجه الطبراني عن ابن مسعود بإسناد لا بأس به « الجامع الصغير » ؛ ففي الحديث إشارةٌ إلى تعدُّد الزوجات ، والمراد من كَتْب الغِيرة على النساء كَتْب ما يُثيرُ الغيرة ، وهو تعدّد الزوجات ، وإنّما فَسَّرنا بهذا لأنَّ الغيرة توجَدُ في الرجال أيضاً ، لكنّهم لم يكلّفوا بها ـ أي : بتحمل ما يثيرها ـ كما كُلِّفَتِ النساءُ .

ولختم المقال ، فقد طال على القارىء ، وخلاصته : إنَّ في تعدّد الزوجات جُنَّةً من البِغَاء ، وقوةً للأمّةِ العاملة به .

السفور والاحتِجاب

لا خلافَ في أنَّ الشرقَ مهدُ العلوم والمدنيات ، وسبَبُ ذلك يرجِعُ إلى كونِهِ موطن الأنبياء ومَهْبط الوحي الإلهي ، حتى أنَّ مدَنِيَّةَ اليونان التي هي أقدم مدنية في أوربة ، والتي استنار منها الغرب قبل ما استنار من علوم الإسلام ومدنيته المنصبَّة إلى إسبانية بأيدي العرب الفاتحين ، مقتَبَسَةٌ من اتصال اليونانيين بسكّان سواحل آسية المحاذية لسواحل اليونان بمناسبة التجارة وغيرها ، فضلاً عن كون أصل اليونانيين من المهاجرين الشرقيين .

ولا خلافَ أيضاً في أن السُّفورَ حالَةُ بداوةٍ وبداية في الإنسان ، والاحتجاب طَرَأ عليه بعدَ تكامُلِه بوازع دينيّ أو خُلقيّ يَزَعُهُ عن الفوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ، ويسدُّ ذرائعها ، ويكون حاجزاً بين الذكور والإناث . وقد خُصَّ الاحتجابُ بالمرأةِ دون الرجل لاشتغالِهِ في خارج البيت ، ولأنَّ موقِفَه في المناسبات الجنسية موقف الطالِب ، وموقِفُ المرأة مَوْقِفُ المطلوب ، فيكون منه الطلب والإيجاب ، ومنها القبول أو الإباء ، واحتجابها وسام إبائها وهي متحلِّيَةٌ به أمام الرجل كيلا تحتاج إلى الإباء والرَّفْض باللسان أو اليد ، ففيه صونُها عن أن تكون عُرْضَة للرجال ، فإذا تصدَّى لها الرجلُ ، وراوَدها بلحَاظِهِ ، وأرادتْ هي قبولَ مراودته تُسْفِرُ له ، فهو ينمّ عن قَبولِها الطَّلب ، وسفورُها لرجلٍ مُعَيَّنٍ من غير سَبْقِ طَلَبٍ منه شعارُ قبول متقدِّم على الطلب وإغراءٌ له بالطلب ، وسفورُها العام شعارُ القَبول والإغراء العامَّيْن .

ثم إنّ الاحتجاب كما يكون تقييداً للفَوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ، ويضاد الطبيعة من هذه الحيثية ؛ فهو يتناسب مع الغيرَةِ التي جُبِلَ عليها الإنسان ، ويوافِق الطبيعةَ من ناحِيتِهِ الأخرى ، إلا أنْ الغيرَةَ غريزَةٌ تستمدُّ قوَّتَها من الروح ، والتحرُّرَ عن القيود في المناسبة الجنسية غريزَة تستمد قوّتها من الشهوة الجسمانية ، فهذه تُغري بالسُّفورِ ، وتلك تَبْعَثُ على الاحتجاب ، وبين هاتين الغريزتين تَجافٍ وتحاربٌ يجريان في داخل الإنسان ؛ فالمدنية الغربية انحازت إلى الطبيعة الأولى ، وقرَّرَتْ أنْ لا تحرم المنتسبين إليها التمتعَ الجاذب الحلو في سُفورِ النساء واختلاط الجنسين في الأندية ومجالس الأنْس والسهر ، وضحَّت بالطبيعةِ الثانية في سبيل ذلك التمتّع ، فالرجل الغربي يخالِطُ نساءَ الناس ، ويقبِّل أيديهن ، ويجالِسهن سافرات ونصف عاريات ، ويخاصِرهُنَّ ، مقابل التنازل عن غيرَته على زوجته وأخْتِه وبِنْتِه ، فيخالِطُهُنَّ غيرُهُ ويجالِسُهُنَّ ويخاصرُهُنَّ ، ويرى أنَّ عدد ضحاياه قليلٌ بالنسبة إلى ما يربَحُ ، وربَّما لا يوجد من يضحِّي به فيخلُصُ له الرِّبْحُ . والحفلات الراقصة التي هي من لوازم المدنية الاجتماعية في الغرب ليست إلا تأييداً عَلَنياً للمعاشرة المختلطة ، وتقريباً لأحد الجنسين إلى الآخر في الاقتران والالتصاق وقضاءً على الغيرة بين ظهراني مَنْ يُتَوَقَّع منهم التحمّس بها ، فكأنَّ تلك الحفلات أفراحُ القِرانِ العام .

والقضاءُ على الغيرَةِ بَلَغَ عند مدنية الغرب إلى أنْ اعتبرَتْها من النقائص ، بالرَّغم مِنْ أن الإنسان يشعُر بفِطْرتِه أنها فضيلةٌ ، وتواضَعَ كتّابُها وشعراؤها على تغيير هذه الفِطْرَة ، من ذلك ما قاله الشاعر الفرنسي المشهور (هوغو) فيما كتبه إلى مؤتمر للمصلح المنعقد في (لوغانو) سنة ١٨٧٢ م : « . . . نَرى فكرة الاستيلاء انقلبت إلى فكرة الاختراع ، وسيقوم إخاء الأمم السميح مقام إخاء الملوك المفترس ، وسينجو وطَنُنا من الحدود ، وميزانيتُنا من الطفيلية ، وسفَرُنا من العَرْقَلَة ، وتربيتُنا من العنف الحيواني ، وتجارَتُنا من الجُمرك ، وشبيبتنا من

المُعَسْكَر ، وشجاعَتَنا من المقاتلة ، وعدالتنا من المِشْنَقَة ، وحياتنا من السَّنان ، ولسانَنا من العِقال ، وضميرنا من التحكم ، والحقيقةُ من البطلان ، والمعبودُ من الراهب ، والسَّماءُ من جهنم ، والعشْقُ من الغَيْظ والغَرَضِ » وقد أراد بخلاص العِشْقِ من الغَيْظ والغَرَض أن تقوم سعة الأريحية مقام ضيق الغيرَةِ .

ومع هذا فلا يزال أصحابُ الطبْع السليم في الغرب يحسُّون مرارة هذه المعاشرة المختلطة ، وينطقون بالحقّ الناعي على حسراتهم ؛ فقد نَقَلَ الكاتِبُ التركي الأكبر المرحوم جناب شهاب الدين بك في كتابه المسمى « أوراق الأيام » عن مدام دولارو ماردیروس ، التي وصَفَها الكاتبُ بأنها كبرى شاعرات فرنسة ، قولها له : « قولوا لنسائِكُم ليقدُرْن قَدْرَ سعادَتِهِنّ ، وما يضطرِرْن إليه من الحياة المحجبة التي تصونُهُنّ عن اضطرابات كثيرة . فلو عَلِمْنَ عدَدَ مُحِبّاتي اللائي بكَيْنَ على مَنْكِبَيّ شاهِقات ؟! إنّ في أذنيْ ودائع من شكايات النساء تفتّتُ الأكباد ، نعم ! إن دخول حفلة راقصة فخمة يُرى كتصريحٍ جديرٍ بالطلب ، ولكن الغيرَةَ التي تنهش قلب زوجة تدخل هذه الحفلات مع زوجها الذي تحبّه ، أشبه بأفعى رَقْطاء ، يا لها من أفعى ! فهل أنتم تَعْرِفون ذلك ؟ فالحفلاتُ الرَّاقِصةُ ، ومسارح التمثيلِ ، وجميع أندية التلاقي ؛ ما هي إلا دُور تعذيب لِسِنْت أوفيس ، وما هي إلا جهنَّم أمام رجل يهمّه أمر زوجته ، أو امرأة تحب زوجَها ، فهل أنتم فاهمون ؟! أفيدوه إذاً لزوجاتكم وإخوانكم » .

ومِنَ الدَّليل على كَونِ السُّفُوريين يتكلّفون إسكات صوت الغيرة في قلوبهم وإماتَتَها مقابل ما يتمتّعون به من الاختلاط بنساءِ غيرِ نسائهم ، أن مقلِّدتَهم من المسلمين لا يسمحون بالدخول على نسائهم إلا لِمَنْ يَسْمَحُ لهم بالدخول على نسائِهِ ، فلو قَصَدُوا بالسُّفُورِ الذي يدعون له إلى تحرير المرأة من أسْرِ الاحتجاب كما يدعونه لما حافظوا على شرط المعارضة في سُفُور نسائهم عند أي رجل من معارفهم .

ومن الدَّليل الجليّ أيضاً على انّ ما يَرْمي إليه سُفُورُ النساء العَصْرِيّ ليس بشيء عادي يتَّفِقُ مع الصلاح وينبني على طوية حسنة من الذين يدعون له ، ولا يزيد على مساواتهنّ بالرجال في أنهُنَّ خُلِقْنَ حرائر كما أنهم خُلِقوا أحراراً ، من الدليل على ذلك أن سفورَهُنَّ لا يقف عند حد سفورِ الرجال ، فيكشفْنَ عن أذْرُعِهِنَّ إلى آباطهنَّ ، وعن صدورهِنّ وظهورهِنّ وسيقانِهِنَّ ، في حين أنّ الرجال لا يرون أي لزوم للكشف عن هذه الأعضاء ، فالسُّفورُ خرجَ اليوم عن معناه في أصل اللغة ، وهو الكشف عن الوجه ، وتحوّل إلى ما نَراهُ من نصف التعرّي أو ثلثيه ! والاختلاط في هذه الحالة بالرجال الأجانب ! فنحنُ لا نجيزُه لبلادٍ يهتم أهلها بعِفَّةِ نسائهم ، ونراه رائداً للفسق والفَسَاد ، ونتعجَّبُ من كُتَّابٍ اتخذوا الدعاية للسفور مبدءاً لهم ، ثم نراهم الفَيْنَةَ بعد الفَيْنة يشكون تهافت النساء على أنواع التبذّل والاستهتار في المصايف وعلى شواطىء البحر ، واندفاع الفتيان والفتيات وراء الشهوة الجامحة ، لا سيما في (استانلي باي) التي وصفها أحد شعراء مصر الكبار بقوله من قصيدة :

تَرَى العَيْنُ فَوْقَ الرَّمْلِ سِرْباً مِنَ المَهَى ... مُبَعْثَرَةً فِي الرَّمْلِ بَعْثَرَةَ الزَّهْرِ
تَمِيلُ عَلى الجَنْبَيْنِ فَوْقَ أدِيمِهِ ... مُمَدَّدَةَ السَّاقَيْنِ مَثْنِيَّةَ الخَصْرِ
وتُبْصِرُ فَوْقَ البَحْرِ اُخْرَى تَجَمَّعَتْ ... تَجَمُّعَ سِرْبِ الطَّيْرِ يَخْرُجُ مِنْ وِكْرِ
وَبَيْنَهُما سِرْبٌ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي ... عَلى مِثْلِ حَالِ المَوْجِ فِي المَدِّ وَالجَزْرِ
عُرَاةُ نَوَاحِي الجِسْمِ إلاَّ بَقِيَّةً ... تَلُوحُ هِيَ الأخْرَى وَدَعْكَ مِنَ السَّتْرِ
وَتَجْلِسُ فِي النَّادِي فَتَاةٌ عَلى فَتَى ... عَلَى الوَرْدِ بَيْنَ النُّقْلِ وَالكَأْسِ وَالْخَمْرِ
هُنَالِكَ كُلُّ اُثنَيْنِ ضَمَّهُما هَوَى ... وكُلُّ مُبِيحِ العِرْضِ فِي المَعْرِضِ الحُرِّ
فَفِي البَحْرِ سَوآتٌ وَفي البَرِّ مِثْلُهَا ... فَيَا ضَيْعَةَ الأخْلاقِ فِي البَرِّ والْبَحْرِ

وقال آخر :

هَـلْ رَأيْتَ الجُمُوعَ مُحْتَشِدَاتٍ ... فَوْقَ شَطِّ الخِضَمِّ أوْ سَابِحَاتِ
وَرَأيْتَ الحِسَانَ يَمْشِينَ زَهْواً ... مُقْبِلاتٍ يَتِهْنَ أو مُدْبِرَاتِ

ضَلَّلَتْهُنَّ قُدْوَةُ الوَالِدَاتِ   وَمِنَ الوَالِدِينَ سُوءُ أَنَاةِ
وَمِنَ الزَّوْجِ غَضُّ طَرْفٍ لِضَعْفٍ   أَوْ طِبَاعٍ فِي نَفْسِهِ فَاسِدَاتِ
وَانْغِمَاسُ الشَّقِيقِ فِي شَهَوَاتٍ   لا يُبَالِي بِمَنْهَجِ الأَخَوَاتِ
فَاطَّرَحْنَ الحِشْمَةَ يَحْسِبْنَهَا مِنْ   بَالِيَاتِ الأُمُورِ وَالعَادَاتِ
وَكَشَفْنَ الجُسُومَ إِلاَّ قَلِيلاً   وَتَرَكْنَ الحَيَاءَ فِي الحَرَكَاتِ
يَتَخَطَّرْنَ جِيئَةً وَذَهَاباً   مُبْدِيَاتِ الدَّلالِ مُسْتَهْتِرَاتِ
وَيُغَالِينَ فِي مِزَاحٍ وَلَهْوٍ   لَسْنَ بِالعُرْفِ وَالنُّهَى حَافِلاتِ
تَلْتَقِيهِنَّ تَارَةً رَاقِصَاتٍ   مَعْ رِجَالٍ وَ فِتْيَةٍ وَلِدَاتِ
وَتَرَاهُنَّ مَرَّةً فَوْقَ رَمْلٍ   جَنْبَ رَهْطِ الشَّبَابِ مُنْبَطِحَاتِ
وَيغَازِلْنَ بِاللِّحَاظِ شَبَاباً   وَبِهَزِّ الخُصُورِ وَالضَّحِكَاتِ
مَرَّةً يَهْتَرِشْنَ دُون حَيَاءٍ   وَيُهَارِشْنَ فِتْيَةً مَرَّاتِ
يَتَخَبَّطْنَ مَوْجَةً إِثْرَ أُخْرَى   قَافِزَاتٍ فِي خِفَّةٍ صَاخِبَاتِ
حَالَةٌ تَجْرَحُ الفَضِيلَةَ حَقّاً   وَلَهَا تَدْمَى نَفْسُ ذِي النَّخَوَاتِ
شَطُّ استانلي أَنْتَ عَارٌ لِمِصْرَ   وَعَلَيْهَا مِنْ أَشْنَعِ الوَصَمَاتِ
أَيُّهَا البَحْرُ طَهِّرِ القَوْمَ وَاغْسِلْ   مَا تَرَاهُ مِنْهُمْ مِنَ المُنْكَرَاتِ

وقال آخر :

هَا قَدْ تَرَحَّلْنَا فَقُلْ لِي   مَاذَا رَأَيْتَ على سْتَانْلِي ؟
مَاذَا رَأَيْتَ وَقَدْ وَقَفْـ   ـتَ ضُحىً عَلَى الرَّمْلِ المُطِلِّ
مِنْ كُلِّ جِسْمٍ ضَاحِكٍ   يُوحِي إِلَيْنَا بِالتَّمَلِّي
مِنْ كُلِّ غَازِيَةِ القُلُو   بِ تَسِيرُ فِي صَلَفٍ وَدَلِّ
أَوْ كُلِّ سَاكِنَةِ العَرَا   ءِ وَكُلِّ نَازِلَةٍ لِظِلِّ
زُمَرٌ مِنَ الحُسْنِ الرَّفِيـ   ـعِ تَطُوفُ فِي ضَنٍّ وَنَيْلِ
هذِي تُحَيِّي مَنْ تَشَا   ءُ وَتِلْكَ تَبْخَلُ أَيَّ بُخْلِ
ضَاقَتْ بِهِنَّ الأَرْضُ حَتْـ   ـتَى كُدْتُ أَجْلِي مِنْ مَحَلِّي

وَأَخَذْتُ مِنْ عَجَبي أُحَدْ ـدِق في المَشَارِفِ وَالمُوَلِّي
فَإِذَا الظِّبَاءُ الآنِسَاتُ ثمرُ لَا تَلْوِي بِمِثْلِي
وَإِذَا الخُصُورُ الضَّامِراتُ تَجِلُّ عَنْ وَصْفٍ وَقَوْلِ
وَإِذَا الجُفُونُ النَّاعِسَاتُ تَكَادُ تَقْتُلُ أَيَّ قَتْلِ
وَإِذَا الوُجُوهُ المُشْرِقَاتُ تَكَادُ تَخْطَفُ كُلَّ عَقْلِ
يَا قَلْبُ هَذِي كَعْبَةُ الدْ ـدُنْيَا فَقِفْ يَوْماً وَصَلِّ
لِلْغَارِبَاتِ كَأَنَّهُنْـ ـنَ عَرَائِسُ البَحْرِ الأَجَلِّ
مِنْ أَيِّ وَادٍ في الكِنَا نَةِ أَوْ مَكَانٍ أَوْ مَحَلِّ
طَلَعَ الجَمَالُ العَبْقَرِيْـ ـيُ عَلَى ثَرَى الشَّطِّ المُدِلِّ
مَهْمَا أَقُلْ فِيهِ فَلَسْـ ـتُ بِبَالِغٍ جُهْدَ المُقِلِّ
يَا قَلْبُ وَالحُسْنُ اسْتَوَى خَلِّ الوَقَارَ اليَوْمَ خَلِّ
وَابْسِمْ كَمَا بَسَمَ الهَوَى وَانْزَعْ هُنَالِكَ كُلَّ غِلِّ
وَانْسَ الحَيَاةَ وَمَا بِهَا وَدَعِ الشَّقَاءَ لِمَا يُسَلِّي
وَانْعَمْ أَمَامَكَ بِالغَوَا نِي قَدْ بَرَزْنَ بِأَلْفِ شَكْلِ
وَلَبِسْنَ أَمْوَاجَ الخِضَمْـ ـمِ البِيضِ إِلَّا فِي الأَقَلِّ
وَسَبَحْنَ يَا لِلْحُسْنِ كَيْـ ـفَ يَغِيبُ في مَاءٍ وَرَمْلِ
وَمُتَاجِرَاتٍ بِالغَرَا مِ يَجِرْنَ مِنْ خِلٍّ لِخِلِّ
يَغْوِينَ آلافَ الرِّجَا لِ بِبَسْمَةٍ أو بَعْضِ دَلِّ
فَإِذَا القُلُوبُ تَظَلُّ تَرْ عَاهُنَّ في سَفَرٍ وَحَلِّ
هَذَا يُمَنَّى بِالوِصَا لِ وَذَاكَ يُمْنَى بِالتَّخَلِّي
وَالقَوْمُ مِمَّا قَدْ أَصَا بَهُمُ عَلَى خَطَإٍ وَجَهْلِ
وَيْلِي عَلَى الظَّبْيِ الَّذِي قَدْ شَرَّدَ الأَحْلامَ وَيْلِي
في سَكْرَةِ الحُلْمِ الجَمِيـ ـلِ ذَادَ عَنْ نَهْلٍ وَعَلِّ
مَنْ عَلَّمَ الظَّبْيَ الغَرِيـ ـرَ ضَرَاوَةَ الآسَادِ قُلْ لِي !

ويقول عنها كاتبٌ من النوّاب :

« هذا فتى وهذه فتاة ، إي والله ، هما فتى وفتاة من أبناء هذه الحضارة التي نكابد آثارها . كلاهما يَبْدو في المَصِيف وفي ضَحْوَةِ النهار خارجاً مِنْ مأواه (الكابين) عُرْيانَ ، حاسِرَ الرأس ، بادِيَ السَّوْأتَيْن ، يقطع ما بين مَأواه والشاطىء على هذه الصُورَة ، ثم لا يبتَدِرُ الماءَ ليستَّرَ به سَوْأتَه ، بل يهيم على طُول الشاطِىء أو على امتداد الطريق كما كانَ يفعل الإنسان الأوّل حين ينطلق من مأواه يطلب قوتَهُ في صَيْدٍ يباغته ، فكلاهما طالِبُ صَيْدٍ ، غير أن الشباك مختلفات .

وهذه لُمَّةٌ من بني آدمَ وبناتِ حواء . إي والله ! هي لُمَّةٌ من بني آدم الواغلين في صَمِيم المَدَنِيّة وبنات حواء الواغلات في تَرَفِ العصر ، وزخرفة تَسْتَشْرِفها على بُعْد ، فتَخْطُو إليها لترى ما خَفِيَ من أمرها ، فإذا انتهيتَ إليها رأيتَ العُرَاة متلاصقين يرقُصون رَقْصَ المدنية السَّمِجَةِ ، ما احتمَلَتِ النَّفْسُ مَضَضَه وهو في الغُرَف والأبْهاء ، فكيف احتماله وهو في الفَضَاء والعَرَاء ؟

وقد يُرى في جانب آخر أشباهُ قَوْمٍ آخرين قد يكونون مَثْنى ، وقد يكونون ثلاث ، وقد يكونون أكثر من ذلك ، وهم أمام المصوِّر في أوضاع ليس وراء تبذُّلها غاية لِمُسْتَبْذِل » .

وتقول إحدى الكاتبات : « لقد رمانا القَدَرُ وسوءُ التربية ببَعْضِ المجازِفات المعتوهات اللائي قَلَّدْنَ الراقصات في الاستحمام على الشواطىء ، ثم تبعهنّ غيرهنّ ، حتى أصبح الأمر شايعاً بين كل الطبقات إلا مَنْ عَصِمَ ربُّك ، تمشي المرأة المستهترةُ على الشاطىء كَمَن يتخبَّطه الشيطانُ من المَسِّ ، تجَمَحُ في الغِوَاية ، لا يكْسِرُ شكيمتَها قانونٌ ولا يكْبَحُ جماحَها شيءٌ ، تروحُ وتَغْدو بملابس الاستحمام الضَّيِّقة المهلْهَلَة ، وتَتَثَنّى وتتلَوّى وتتمايل وتختال ، ثم تَنْظُرُ إلى الجالسين ، وتطالع على وجوههم ، ماذا فَعَلَتْ كلُّ هذه الوقَفَات في نفوسِهِم ؟ وهل راقَهُم منظرُها أو أنَّهم عليها ناقمون ؟! » .

«... كانت المرأةُ بليدةً فاترةً هامدةً ، لا تشعرُ بشيءٍ ، ولا تحفَلُ بمحاسن الحياة ومباهجها ، تَرْسُفُ في الأغلال ، تَحْيى حياةً صامتةً كئيبةً قاتمةً ، وكان أنصارها يقولون بأنَّ كَثْرَةَ الضَّغْطِ تسبِّب الانفجار ، فصحَّتْ نبوءَتُهم ، وها هي انطلَقَتْ على غير هُدَى ، واندفعت اندفاعاً فهدَّمت سياجَ الفضيلة بمعاول المَدَنِيَّة والجهل ، فَمِنْ حجاب مَمْقوتٍ ، ومن خِدْرٍ مَكْنُونٍ لا تراه العيون ، إلى الشارع مكشوفةً حافِيَةً عارِيَةً ، وَسْوَسَتْ لها المدنيةُ وخَدَعَتْها ، فحسِبَتْ أنَّ حريَّةَ المرأةِ هي الحرّية الخارجة على الحياء ، الهادِمة للآداب ! وغفَا الآباءُ والأزواجُ ، وغفَا أُولو الشأن ، وتسامحوا ، ولم يفكِّرُوا في إرهابِها وتخويفِها ومَنْعِها » .

« فهلْ جَرَى في ظَنّ أحدٍ يدعُو إلى السُّفورِ أنْ تخرجَ المرأةُ هكذا عاريةً من الفضائل ، عاريةً من الملابس ، لتواجه الشمس كما تدّعي ؟ » .

« فلو عَلَّمُوهُنَّ الدِّينَ لتطهَّرت نفوسُهُنَّ عن الدنايا ، لو علّموهُنَّ الدينَ لما زلَّت القدمُ ، ولكان لَهُنَّ دِرْعاً يقيهن شرّ الفساد » .

« وهل جرى في ظَنِّ أحدٍ أنْ تسكتَ الحكومةُ ويسكُتَ السادةُ العلماء ؟! وهل جَرَى في ظَنِّ أحدٍ أنْ تتفضَّل إدارة المطبوعات بالغيرَةِ على الأخلاق فتطلب مَنْع نشر صور المستحمّات وتترك المستحمّات لحماً مكدّساً على الشواطىء ؟!» .

« والمرأةُ المستَهْتِرَةُ تعرضُ جسمَها على أنظار الناس تستجدي النظرات الخائنة ، تَطْرَبُ لها ، وهُمْ هناك على الشواطىء يحمِلُ بعضُهم بعضاً ، ويعبثُون ولا يتورَّعون ، لم ينشدْ لنا نصيرُنا قاسم أمين هذا الذي اخترعته المرأة وتفنَّنَت فيه ، ولو كان يعلم الغيبَ لألقاها في غيابَةِ السجنِ لا تخرج منه أبداً ؛ أراد قاسمٌ أن تتعلَّم المرأة وطَلَب مساواتَها بالرَّجُل » .

ونحن نقِفُ هنا وقفة ، فنقول للسيدة الكاتبة : بل هذا هو الذي نَشَدَهُ قاسم أمين وأضرابُهُ من أنصار السُّفُور، وكان كلّ مَنْ له عَقْلٌ وخِبْرَةٌ بأهواء الرجال

والنساء وميولهم الغريزية يعرفُ أنَّ عاقِبَةَ السُّفورِ ستكون هذه المخازي ، لأنَّ فكرةَ السُّفورِ حَصَلَتْ فينا تقليداً للغَرْبِ ، وكُنّا عالِمِين بأنَّ سُفُورَ المرأة الغربية غير مُقْتَصِرٍ على كَشْفِ وجْهِها . ومما يدلُّ على كَوْننا لم نتَّعِظْ بعدُ هذه التجارب المخْجِلة لدعاة السُّفورِ فينا ، ظَنُّنا بأنَّ السفورَ في الغرب لا يتضمَّن تلك المخزيات المنافية للآداب والأخلاق ، حتى أصبح كالعادة عند الذين يجلسون للوعظ والإرشاد من دعاة التجديد الذي فيه السُّفور وغيره ، أنْ ينبِّهوا على الفَرْقِ بيننا وبين الغربيين في الاستعداد للحرية ، ويوصونا بمراعاة التدريج إلى أنْ نبلغ مبْلَغَهم في العلم والرُّقِيِّ ، ولكن لا العلم ولا الرقيّ ، ولا أيّ شيء ، لا يغلب على الطبيعة ، فالسُّفورُ على حَدِّ انكشاف نساء الغرب ـ الذي هو قدوة الشرقِ اليوم ـ واختلاطُ المرأةِ بالرِّجَال ، يكونُ لهما أثرُهما الطبيعي البتّة إلا في النادر الذي لا يُبْنى عليه الحُكْم ، وليس التدريج في السُّفورِ ولا الاستعدادُ له إلا تدريجاً في المفْسَدَةِ ، وإلا استعداداً لما ينجرُّ إليه ، فلا تغرنَّكُم كلماتُ دعاةِ السُّفُور المموّهة والقيودُ الاحترازية التي ذَكَروها لتبرير دِعايتهم .

ثم إنِّي أرَى الكاتِبة الفاضلة تأْسَفُ على عدم تعليم المرأة الدينَ ليكون لها وازِعاً ويقيها شر الفساد ، ونَرَاها مع ذلك توافق قاسم أمين على دَعوى مساواة المرأة بالرَّجُل التي لا يقبلُها الدينُ . على أني أقول مخالفاً للكاتبة : لَو علَّموهُنَّ الدينَ بالمعنى الذي يريدونه من الدين مِنْ غيرِ أن يجمَعُوا إليه سَدَّ أبواب الفِتَنِ وذرائع الفساد ، كالسُّفورِ واختلاط الجنسَيْن ـ الذي هو من الدين أيضاً ـ لما كَفَى وازِعاً وواقياً.

وقال كاتب (ما قَلَّ ودَلَّ) : « في البلاد التي تَحْبو إلى الحرية يكثُر التَّزَعْزُعُ الاجتماعي ، كالرجل الذي يظلُّ محجوبَ البصر بعد عملية جراحية في عينيه ، لا يستطيع أن يواجه النور ، فهو في حاجةٍ إلى بصيص ضئيلٍ يتزايد شيئاً فشيئاً حتى يجيء يوم يواجه الشمس ساطعةً » .

هذا أبلغُ مثالٍ يحاول أنصارُ السُّفور التدريجي أن يتمسَّكوا به ، ومعنى هذا أنَّ مسرح (ستانلي باي) لو كان عَرَضَ على أهل البلاد بعد عشرين سنة مثلاً لما هالَهُم كما هَالَ اليوم حتى أنصار السفور مثل هذا الكاتب . وانظر إلى قوله : « كُنَّا نهلِّلُ كُلَّ مرة نسمع فيها بفتاة مصرية نابغة (وعدَّ هنا بعضَ الفتيات اللاتي تعلَّمْنَ في أوربة) نُهَلِّلُ ونكَبِّرُ ، ويقول ضعاف الأحلام والعقول : هذا إسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، وها هو الردُّ عليهم في (ستانلي باي) فإننا يجب أن نَنْفُخَ في صور الفضائل ونمجِّد اللواتي يجلسن إلى مكاتبهن السنين الطوال يدرسن ويبذلن شبابهن في خدمة المجتمع ، فهؤلاء هُنَّ اللواتي يُحضرن هذا المجتمع للحرية العاقلة الرزينة الكريمة ، لا اللواتي يقْتَبِسْنَ آخر أزياء البيجامات من شاطىء « ستانلي باي » .

من الغريب أن تكون (ستانلي باي) رداً على ضعاف العقول الذين يخالِفون الإسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، أليس في تكوين (ستانلي باي) يدٌ لأنصار المرأة العصرية ؟! فلماذا إذن لم تكن (ستانلي باي) موجودَةً في غابر الزمان الذي لم يوجَدْ فيه أنصار المرأة ودعاة السُّفور ؟! فها نحنُ بِفضْلِهم وبِفَضْلِ انتصارهم قد رَأَيْنا بجنب النوابغ الثلاث اللاتي ذكرهن الكاتب ثلاثة آلاف أو أكثر من اللواتي قال عنهن : « فالفتاة المصرية التي تعتَقِدُ نَفْسَها آية الآيات في الرشاقة والأناقة ، والتي بدأت تقتَبِسُ البيجاما السَّاحِلِيَّة الفضفاضة ، وتكشف عن فَخِذَيْها ونَهْدَيْها وظهرها وصَدْرِها ، والتي تعرف السرّ والخفاء ، والتي تحسنُ الرقْصَ الحديث ، وتعرفُ كيف تتلاعَبُ بالألفاظ والقلوب ، هذه الفتاة المُحْدَثَة على الحرية هذه الحداثة ، هل تعرف ما تنشده ؟ والمرأة الأوربية التي تقلِّدُها اليوم الفتاة المصرية هي امرأة من بلاد عريقة في الحرية ، حرية اشتَرَتْها تلك البلاد بدمائها ، وفي مقدمة الصفوف النساء ، وتلك المرأة تعرِفُ كيف تُنَظِّم بيتها ؟ وكيف تطرّز ثوبَها ؟ وكيف تعيش بالمِلِّيم والدانق ؟ وكيف تربطُ ميزانيتها ؟ وكيف تربِّي إلى جانب هذا كلِّه وقبل هذا كلّه ولدها ؟ فهي اشترت حريتها بثمن باهظ ، اشترته

بما بذلته من دَمٍ وتضحيةٍ وإجهادٍ ، إنها اشترت الحرية على مدى أجيال » .

الكلام في تبذّل المرأة الشرقية المقلّدة ، وإسرافها في الانكشاف والخلاعة ، ولا علاقة له بكون المرأة الأوربية تعرف كيفَ تنظّم بيتها وكيف تربط ميزانيتها . . . الخ ، فلعلّ الكاتب يغفر للمرأة المصرية إسرافها في التبذّل والانكشاف لو عرفت ما تعرفه الأوربية ، وكان ما يلزمه أن يقول : إنّ المرأة الأوربية لا تسرف هذا الإسراف في الانكشاف والإغراء بالرجال ، لكنه لا يستطيع هذا القول ، ولو استطاعه لكفاه أقواله في خارج الموضوع ، مثل كون المرأة الأوربية من بلاد عريقة في الحرية ، واشترائها الحرية بثمن باهظ ، مما لا يبرّر شيءٌ منه إسراف المرأة في الانكشاف ، نعم ! إن نساء الشرق ، ولا سيما المسلمات ؛ اشترينَ الحريةَ من غير ثمنٍ بفَضْلِ الرجال المحامين المتطوّعين ، وكيفما كانت المرأة نالت حريتها بثمن باهظ أو رخيص أو من غير ثمن ، وسواء كانت في الشرق أو الغرب ، فسُفورُها بالمعنى العصري لا يخلو عن إفسادها ، وأكرّرُ لك قولي بأنْ لا يَغرُرْكَ تقلُّبُ الكاتِبين عن السُّفور في الكلمات الخلّابة الفارقة بين نسائنا ونساء الأوربيين الرامية إلى أنّ السفور لا يضرّهن ، والموهِمَة بأنّ نساءَنا إذا ارتقَيْنَ مثلهنّ فلا يضرّهن السفورُ أيضاً ، وليس الذنب في السفور ، وإنّما في إساءة استعماله ؛ فأمثالُ هذه الاستدراكات من دُعاة السفور إنّما يُقصَدُ بها سَدْل ستار من التضليل على جناية السفور الفاضحة ، والعجبُ أنّه ينلرُ مَنْ لا ينخدع بها مِنْ أصحاب القلوب الصافية ، فيُؤمِنُون بالفَرْق بين المرأتين ، ويعتذرون به عما وصَلَ إليه حال المرأة المسلمة من السُّفورِ ، ويَعْقِدون الأملَ على رقيِّها مثل الأوربية حتى تخلص من تبذُّلِها الحالي . عَمَّتْ هذه الفكرةُ ، ولم ينجُ من تأثيرها ـ وعلى الأقل من بعض تأثيرها ـ حتى الوسط الديني ، فقد قرأتُ مقالة قيّمة في مجلة دينية أجاد كاتِبُها في شرح مضار الحضارة الغربية بالمرأة المصرية ، وفي ضمن هذا الشرح قوله : « وَرِثْنا مِنْ هذه الحضارة غير الإباحية المُطْلقة للفتاة بدعةً جديدةً ، هي بدعة العُشْرَة قبل الزواج ، منتشرةً في المدن المصرية على وجه

الخصوص . وأصبحْنا نحاكي الفرنجة في هذا الضرب من ضروب الإقدام على الزواج ، ولكن مع الأسف الشديد هم ناجحون في خِطَّتِهم في غالب الأحيان ، ونحن مُخفِقون في كلِّ حين ، وهم مُوَفَّقون ، ولكنَّا لن نوفَّق ولو بعد حين ، ذلك لأنهم يُحْكِمون ترتيب الخطة ، جادُّون في عَمَلِهم ؛ وأما نحنُ فمُقْدِمون عليها بلا ترتيب ولا نظام ولا استعداد ، عابثون فيها أشدّ العَبَثِ » .

والحقُّ الذي يَليقُ بأنْ يُقال في مثل تلك المقالة القَيِّمة الداعية إلى سواء السبيل ، أنّ العِشْرَةَ قبل الزواج تضرُّ في كلِّ بلدةٍ شرقيّة أو غربيّة ، ولا ينفع معها إحكامُ النظامِ ما دام الفتى يختلي مع الفتاة ، كما أنّ الحقَ الحقيقَ بأنْ يُقال في السفور العصري أنّه يضرّ بالمرأة الشرقية والغربية معاً ، ولا يمنعه من ضَرَرِهِ رقيُّ المرأة الغربية ، وَحَسْبُكَ وحَسْبُها أنها تدخل الحفلاتِ الراقصة الخاصّة بطَبَقَتِها ويخاصرُها فيها غيرُ زوجِها ، وهي في ثوب السهرة الذي لا يستُر من جسمها إلا قليلًا ، وينمُّ عمّا تحت القسم الذي يستره ، وحَسْبُك ممّا تعرفه من رقيّ المدنية الغربية أنها تعتبر الغيرةَ التي جُبِلَ عليها الإنسان من المعايب وتُرَوِّضُه على التخلُّص منها ! بل إنَّ هذا التوسُّعَ المُبْتَذَل في السفور إلى النحور والصدور والظهور والأذرع والأفخاذ ليس إلا صنع أوربة ، لم تكن تعرفُهُ المرأةُ الشرقية ، لا سيّما المسلمة ، وإنّما تعلَّمَتْه من المرأة الغربيّة ، حتى أنّ مناظِر (ستانلي باي) الفاحشة الممقوتة بعينها من هدايا الغرب ، ولم تكن الفواحش في مصر وغيرها من قبل مبسوطة في عراء البر والبحر ، وإنّما كانت منحصرةً في مكامِنِها ، لكن دعاة الشرق للغرب لا يزالون يزكُّون المرأة الغربيّة ويمجِّدُونها بين الإنكار على فضائح السفور في الشرق بالرغم من كون المرأة الشرقية أخذَتْها منها ، يزكُّونها لئلا يَتَضَعْضَع صرح مبدأ التقليد الذي سعى أنصار السفور في بنائه أيّ مَسْعاة .

فاعلمْ هذا ، ولا تستَمِعْ إلى أحاديث الفَرْقِ بين المرأة الشرقية والغربية ، فعند ذلك تكون ذا فكرة تامة في مفعول السفور واختلاط الجنسين السيىء ، واحذرْ أن

يجعلك المضلّلون نصف عدوٌ لها ونصف نصير . والذي أقصده من كتابتي في هذا الموضوع هو التنبيه على مثل هذه النقط الدقيقة ، وإلاّ فما أكثر ما كُتِبَ ضد السفور حتى من أنصاره أيضاً حين جُبِهوا بمخازي المستَهْتِرات ، وأكثر الكاتبين أفصحُ مني قلماً .

نعودُ إلى أقوال كاتب « ما قلّ ودلّ » ومنها : « ماذا نرى في (ستانلي باي) ؟ هل هو وَسَطٌ شرقي ؟ هل هو وسَط غربيٌ ؟ لا هذا ولا ذاك ! إنَّهُ خليطٌ ، إنَّهُ خليط شنيعٌ مدهشٌ متضاربٌ كما لو كان قد امتزج هنا عدوّان لدوُدان ، وكُلُّ عدَوٍ منهما مع ذلك عدو لنَفسِه ، كالشّيطان . فيا لها من بيئةٍ لا تُعرَفُ لها عقيدةٌ ! ولا مذهبٌ ! ولا مبدأٌ ! ولا دينٌ ! هنا صراعُ الطَّيْش والتردُّد والاستهتار والحياء والصراحة والتَّذَبْذُب والبُكُورةِ والفُجور » .

وهذا الكاتب الذي يبكي هنا ، فيما بكى ، على الدين ؛ كَتَبَ في قولٍ آخر له جواباً لخطابٍ وارد إليه يقول صاحبه :

« في أثناء دراستي بالخارج رَبَطَتْني وإحدى العائلات هناك صداقةٌ قويةٌ ، انتهت بشروعي رسمياً في خطوبة آنسة من العائلة ، ولكنّي علّقْتُ الزواج على موافقة أسرتي ، وتصادف رجوعي بالإجازة إلى مصر ، وكنت في زيارة صديق لي ، وجرى حديثُ الزواجِ ، فرويت له أمري ، وأطلَعْتُهُ على صورة الخطيبة ، فنهاني عن ذلك ، وعرض عليَّ الزواج من إحدى بنات بَلَدِهِ ؛ وفعلاً تمّ كلُّ شيء ، وأخذت وعداً رسمياً بذلك ، وفَسَخْتُ خطوبتي مع الآنسة الأجنبية .

انتهت دراستي ، وحضرتُ نهائياً إلى بلدي ، وما كان أشد دَهْشَتي عندما وجدت صديقاً من أعز أصدقائي قد استولى على خطيبتي المصرية بعد أن قال عني لعائلتها ما قال مالك في الخَمْرِ !

فلو أنّ آنسات الطبقة المتوسطة التي ترغب في الزواج منها يوجدن بكثرة وبكيفية يسهل معها التعارف بين لما كانت هناك أزمة للزواج ، ولما تعدّى الصديقُ

على صديقه بمجرَّدِ العثور على آنسة متوسطة في العلم والأدب والجمال والمال ، الأمر الذي نرغبه جميعاً في كل زوجة .

فهل للأستاذ أنْ يساعدَنا على هَدْمِ هذا الحجاب الذي يفصل العائلات عن بَعضها ، وأن يعملَ على تهذيب بعض عوائدنا الاجتماعية ؟ » . ع.ج

فأجاب عنه الكاتب بما نصُّه :

هذا داءٌ قديمٌ عضالٌ ، تعبنا فيه كثيراً ، وآلامُه تتجدَّد أبداً . وقد طالَ الحديثُ في هذا الشأنِ حتى مَلَلْناه ، ولكن الأزمة الخطيرة التي يعانيها الشبان والفتيات في مصر هي الكفيلة وحدها بأن تحلَّ هذا الموقف المُزْري حلاً عاجلاً حاسماً حكيماً لمصلحة العائلة المصرية ، فليس يُرْضينا أن نَجِدَ ألوفَ الفتيات المصريات العاقلات الطاهرات يَفْنينَ في زوايا البيوت ويذوي شبابُهُنَّ ويقضين حياتَهُنَّ في هواجس وخيالات وأماني كاذبة ، ويقعن بالزواج الطائش أو الزواج الجاهل في حَيْصَ بَيْص ، كأنَّهُنَّ ارتَكَبْنَ ذنوباً يُكَفِّرْنَ الآن عنها !

والقول بأنَّ الاختلاطَ يؤدِّي إلى الفوضى هو قول مُبْتَذَلٌ لم يقمْ عليه أيُّ دليلٍ ، لأن الفسادَ بصورَتِه الراهنة شنيع جداً . وقد ارْتَضى الشبّانُ حياةَ العزوبَةِ لأنَّها لا تُكَلِّفُهُم كثيراً ، في حين أنَّها تكلِّفُ الفتاةَ شبابها ، وهو أثمن ما تَمْلِكُهُ .
الصاوي

انظر إلى عَدِّه القولَ ضدَّ الاختلاط قولاً مبتذلاً ! مع أنَّهُ الموافق لقول الإسلام ، فانظرْه مع ما عاب على ممثلي (ستانلي باي) مِنْ أنَّهم لا يعرفون عقيدةً ولا مَذهباً ولا مبدأً ولا ديناً . فهل للكاتب مذهبٌ يثْبُتُ عليه ، وأيّ دينٍ يُبيحُ الاختلاط والعِشْرَة قبل الزواج ، وهي العِشْرَة التي نقلْنا بعض الشكايات المُرَّة فيها عن الكاتب الآخر المخلص لدينه . وقد سَمِعْنا عندما كنا في بلاد اليونان شكايات بشأن تلك العِشْرَة عن أفواه المسيحيين ، ولا يدري الكاتب الذي يحكم بأنَّ الفسادَ بصورته الراهنة شنيعٌ جداً ، أنَّ الفسادَ يصيرُ أشْنَعَ عند توسع الاختلاط كما يحبّه ، وربما يحضر (ستانلي باي) أفواجٌ من الفتيان والفتيات تمضي أيام العِشْرَة

قبل الزواج ، وربّما يحصلُ فيها التبادل بالأزواج المستقبلة ، ومما يُسْتَغْرَبُ على الكاتب بعد أن رأى (ستانلي باي) وأنْكَرَهُ ، قوله بعدم قيام أيّ دليل على القول بأن الاختلاط يؤدّي إلى الفوضى ، مع أن (ستانلي باي) ليس إلا معرض الاختلاط ، وهل لا يعرف السائل الغافل الذي يشكو من الحجَابِ ويطلب الاختلاط ويشكو مع ذلك من صديقه المستولي على خطيبَتِهِ ، أنَّ الاختلاط يعبِّدُ السبيل إلى استيلاء الصديق على زوجة صديقه فضلاً عن خطيبته ؟

أما قولُ الكاتب : « فلا يُرْضينا أن نجد ألوفَ الفتيات المصرية يفنين في زوايا البيوت ويذوي شبابُهن » فمغالَطَةٌ مرماها تدعيمُ ما يدعو إليه من حياة العِشْرَةِ قبل الزواج بأزمة الزواج الحاضرة ، فهو يدعو المصريين إلى أن يَسيموا بناتهم ويَزجُّوا بهِنَّ في الشوارع يبحثْنَ عن أزواج ، ويلقين فتياناً يتبادَلْنَ معهم المحبَّة ، ويعاشرْنَهم بُرْهَةً من الزمان قبل الزواج ، مع أنَّ الكاتب وأمثالَه يعرفون كما يعرفون أبناءهم أنَّ أزْمة الزواج أشدُّ في الأمم التي تصرح لبناتها بهذه العِشْرَة قبل الزواج مع مَنْ يَشَأْنَ من الشُّبَّان ، لأنَّ الشُّبَّان الَّذين ذاقوا حلاوةَ هذه العِشْرة وضَرَوا بها يَسْتَغْنون عن الزواج وأمامهم التفنّن في اختيار المعاشرة ، أو تُزَعْزِعُ هذه الحياة المختلطة بالفتيات ثقتَهُم بهنّ ، فتحذِّرهم من الزواج ، ويكْتَفُون عنه بِشِبْهِهِ ، وتَبوءُ الفتياتُ بتَمْتيعهِمْ مِن حُبِّهن . نعم ! وأنّهن أيضاً يَتَمَتَّعْنَ من حُبِّهم الوقتي المسْتَمِر مدى العِشْرَة ، فلا يكون شبابهن قد ذَوى في زوايا بيوتهن سُدى ، فهل يُرضي هذا العِوَضُ الذي يكسِبُنَهُ حضرةَ الكاتب الساعي في مصلحتهنَّ ؟ أمّا موقِفُهُنَّ بعد انتهاء سوقِ هذه الحياة إلى الكساد ، سواءٌ عدْنَ إلى زوايا بيوتِهِنَّ وهُنَّ أشباه أرامل ، أو بَقِين مُلْقَياتٍ في الطُّرُقِ ، فلا يهمّ كاتبَنا الاجتماعي !

فالحقُّ أنَّ العِشْرَةَ قبل الزواج تُعَرْقِلُ الزواجَ وتزاحِمُه بشِبْهه عكس ما ادعاه أنصار السُّفور والاختلاط ، حتى أنَّ هذه المعاشِرَات أشباه الزَّوْجات يزاحِمْن بنات البيوت والخُدور ، فَيمانِعْنَ زواجَهُنَّ أيضاً ، كما يُفسِدْنَ الزواجَ على أنْفُسِهِنَّ ،

وعليه يَنْبَنِي غَلَطُ الكاتب أو مغالَطَتُهُ ، فلو أوَتِ الجميعُ إلى بيوتِهِنّ وخدورِهِنّ لما وَجَدَ الشبابُ مَنْ يتلاعَبُ بها من الفتيات ، ويَسْتَنكِفُون ، فَيَنْفُقُ سوقُ الزواجِ كما كان نافِقاً قبل أن أعْدت عادةُ العِشْرَة قبل الزواج من الغرب إلى بعضِ بنات المسلمين . ولماذا لا يَخْتارُ صاحبُ الخِطاب مَن يتزوَّجُها من بين السافرات المتأهّبات للعِشْرة ، وهُنَّ موجودات في مصر ، حتى شكا كاتب المقالة في المجلة الدينية من انتشار هذه البدعة في بلدانها ؟ فلماذا لا يكْتَفي صاحب الخطاب بهنَّ فيبغي لحوقَ الصالحات الباقيات بالفاسدات ليصطفي زوجته من السافرات القريبات العهد بالاحتجاب ؟!

واسْتَمِع إلى خطاب آخرَ كَتَبه دكتور إلى كاتب « ما قَلّ ودلّ » :

آلمني ما قرأتُ اليومَ وأمسَ عن حادثتي الطبيبين ، ولكن ألا ترى أن الشّر موجودٌ في كل مكان ولولاه لما شَعَرْنا بالخير ! وهل نسيتَ أنَّ مِثْلَ هذه النفوس الشريرة موجودةٌ في كلِّ مِهْنة ، وأنَّ الواجِبَ يقضي علينا أنْ نَقِفَ في وجه كلِّ مَنْ وَضَعَ في يَدِهُ شرف أسرة فامْتَهَنه ؟ ولكن ما رأْيُكَ يا عزيزي في حالتي المؤلمة وقد ذكرتها لك منذ ثلاث سنوات ؟

لقد عشتُ أكثر من عشرين عاماً أحِبُّ فتاةً لم أكلِّمْها مرةً واحدةً في حياتي ، وخطَبْتُها رسمياً من أبيها ، ولكنّه مات ، فضاع بموتِهِ كلُّ وَعْدٍ . طلَبْتُها من أخيها ، فماطلَني خمس سنوات ، ومن أجلها ، وهي الفتاة التي لم أعرف عنها شيئاً غير أني رأيتها واطمأننْتُ إلى مكانة أهلها الأدبية والأخلاقية ؛ من أجلها فقط تركتُ فُرَصاً كبيرةً منذ عشرين عاماً ـ سواء أكان في مصر أو في أوربة ـ تركتُ كلَّ ذلك لأنِّي أعتقد يوماً أنّها تعلم اني اريدها زوجةً ، فحافَظْتُ على كلمتي عشرين عاماً وأكثر ، وأخيراً اتفقت مع أخيها في صيف العام الماضي في إسكندرية بلدِها أنّي لَنْ أسأله عن أيّ شيء يتعلَّقُ بما يخصّها عن أبيها ، وأنّي أقومُ مِنْ جهتي بشراء كلّ ما يلزم للمنزل من أثاث ، وذلك كي لا أحمله دفع مليم واحد في جهاز

أخته . وفعلاً اشتريت كلَّ شيْءٍ ، حتى علب المِلْح والفُلْفُل ، وصرفتُ في ذلك أكثر من ٢٨٠ جنيهاً ، وكتبتُ له بذلك ليحضر ويشاهد بنفسه ما اشتريتُ ، وليختار بنفسه لاخته سَكَناً في اي جهة في القاهرة . أتدْري ماذا فَعَل ؟ إنه لم يردّ على خطابي ! وأخيراً كتبتْ أختي لوالدته ، فكان الردُّ بعد انتظار عشرين عاماً : لا يمكن أن تتَزَوَّجَ قبل الكبيرات ! وهن أربع . والأدْعى للسخرية أنها قالت لها : انَّ المنجِّمَة اخبرتْهُنَّ ان الزواج يكون تعيساً ، وأحسن شيء قولي لأخيك أن يبحث عن زوجة اخرى ، أمّا الجهاز الذي اشتراه فله أن يتصرَّفَ فيه كيف يريد ! .

لقد انتظرتُ عشرين عاماً لأسمع بعد ذلك حُكْم المنجِّمَة ، واشتريتُ كلَّ شيء لأني اخذتُ وعداً من رجلٍ ظَنَنْتُه شريفاً . ستقول : ولماذا لا تتَّصِلْ بها شخصياً ؟ فأقول : إنَّ هذا من المستحيلات ! فهن يعشْن في القرن الثامن عشر ، وفي منزل أشبه بحصون القرون الوسطى ! إنها لا تعرف السينما ، وتستغرب كيف انَّ السيدات يخرجن الآن سافرات ! وهي من الإسكندرية وفيها ! ولم ترَ البِلاج للآن . كنتُ أظنُّ أنّي اريها العالم وأفرّجها على الدنيا وهي لما تزل خاماً ، ولكني أخطأتُ يا عزيزي ، لأني نسيت أن روحَيْنا ربما لا تمتزجان ، فأنا في الحقيقة لا اعرفُها ، ولكني كَيَّفْتُ منها مدة عشرين عاماً الزوجة الملائكية التي كنت اتخيلها An Ideal Wife ، وبذا أضعتُ حياتي وخيَّبتْ المنجِّمةُ آمالي ، المُنَجِّمَةُ التي تحكَّمَت في مستقبل شاب عاش في أوربة وهو من بيئة متعلمة أبعد ما يكون عن الخُزَعْبلات .

فما رأيك ؟ وأنا طبيب ، الا ترى أن في زمرتنا لا يزال هناك أناسٌ كثيرون يراعون الشَّرَفَ والصِّدْقَ والوفاء ؟

الدكتور محمود . . .

فأجابه :

لست أشكُّ يا أخي لحظة في أن في الأطباء نماذج مُثْلى للخُلُقِ الكريم . بل إنَّ طائفتَهم في مجموعها هي عندنا من أشرف وأكرم الطوائف العاملة .

أمَّا مسألَتُكَ فخطيرة بقدر ما هي حَزِينة . فقد رأيتَ طفلةً وقدَّسْتَها وجعلْتَها أمَلَكَ ومُناك ، وسافَرْت ، وكبرتَ ، وتعلمتَ ، رجاء تزوّجِها ، وقد أسْدتْ إليك هي ، دون أن تدري جميلاً إذ حَفِظَتْكَ من الشرور ، وأخذَتْ بيدِك في العلوم ، وجعلتْك تفوز وتتفوق وتصبح رجلاً عاملاً نافعاً في بلادك . ورأيتَ كلَّ الدنيا من غير أن تَنْساها !! فماذا تُسَمِّي ذلك ؟ إنَّهُ وفاءٌ فعِلاً ، ولكنّه في غير موضعه الآن . أنتَ تفي لشخص إمَّا أنَّه مسلوبُ الإرادة والفِكْر ، وإما أنَّه قد نَسِيَك تماماً ، لأنَّه لا يزعمُ لنفسه كلَّ هذا الوفاء بعد نظرةِ طفولةٍ بريئةٍ ، فلماذا تحرقُ دَمَك ، وتسجنُ نفْسَك في سجن ضيق مع شبح لا وجود له ؟! إنَّني واثق من أنَّك لو رأيْتَها اليومَ لأنْكَرْتَها . فقد تباعَدَ ما بين تَرْبيَتِك وتربيتِها ، وقد سافَرْتَ أنتَ ورأيتَ العالَمَ ، بينما هي لم تعرفْ من الإسكندرية قليلاً ولا كثيراً . إنَّ الفُرَصَ أمامَك سانحةٌ ، ففي بنات وطنك كثيرات يتمنَّيْنَ أن يفتحن لك أبواب السعادة ، فاغْتَنِم ما بقي من العمر ، والله يقيِّضُ لتلك الفتاة الشهيدة مَنْ يُنْقِذُها .

الصاوي

كان الواجبُ على الأستاذ الكاتب أن يَعْتَبِرَ ويُفكِّر من حال صاحب هذا الخطاب الذي يعْتَرِفُ الكاتِبُ بأنَّه من النماذج المُثْلَى للخُلُق الكريم ، وهو لا يسأل الكاتِبَ المساعدةَ على هَدْمِ الحجاب ، كان الواجب أن يَعْتَبِرَ ويُفَكِّرَ ماذا الذي حَكَم على شاب يتعَلَّم في مصرَ وفي أوربة تَحْشُرِ النساء الفاتِناتِ السَّافرات ، ويمكُثُ عِشرين عاماً مربوطاً بفتاة في مصر لم يَرَها إلا مرةً أو مرتين ، ولم يكلِّمْها كلمةً ، ولم يَعرِفْ عنها شيئاً غير مكانة أهلِها الأدبية ، وغير أنَّها لا تعرفُ السينما ، وتستغرب كيفَ أنّ السيدات يخرجن الآن سافرات ! وهي من الإسكندرية ! وفيها ! ولم تَرَ البلاج للآن ! أليس هذا سِحْرُ الحجاب ؟ بلى ! وهو الذي خَيَّلَها له زوجةً من الملائكة ، فلم تملأ عينَيْهِ السافراتُ الحِسانُ ، وجعله يعدُّهُنَّ مُبْتَذِلات .

قد أكثرتُ النقل عن الكُتّاب ، لا سيما عن كاتب « ما قلّ ودلّ » بنصوصهم ، وإن طالتْ كما هو دأبي ؛ لئلاّ يكون قراء مقالتي قد سَمِعُوني فحسب ، بل سمعوا معي المعارِضِين الذين لم يُنتَقَدْ عليهم ، وهم ممن يَعْبأُ الناسُ بكلامهم ، وقليلاً مِمّن يؤيدُ أقوالُهُم دعوايَ من الموافِقِين والمحايدين ، كل ذلك في مقالة واحدة .

وقال كاتب « ما قل ودل » أيضاً ، وهذا آخر ما أنقلُهُ عنه :

رأيتُ رجلاً فاضلاً ، ذا مركز مُمْتازٍ وخلقٍ قويم ، يجرُّ ولَدَهُ الصغيرَ بيَدِه ، يسيران مُتَثاقلَين ، كأنَّ كلاً مِنْهُما عبءٌ على صاحِبِه ، ودخَلَ الأبُ قربَ وقت الغداء دكّانَ بَقّالٍ ليحمل طعاماً جاهزاً من العلَب المحفوظة أو الجبن والزيتون والحلوى ، لأنَّ بيتَهُ بغَيْرِ امرأةٍ ! .

فلماذا ؟ هل ماتَتْ أمُّ هذا الولد ؟ كلا ! ولكنّها شَر من ميتة . إنّها امرأةٌ أجْنبية آواها وأعطاها اسمَه بعد ما لَفَظَها أهلُ بَلَدِها ، وكان يَحْرِمُ نفسَهُ لتسافِرَ هي كلَّ صَيْفٍ إلى أهلها في أوربة ، فلم يُثْمِرْ هذا فيها ، بل تركَتْ له أولاده طالبةً الطلاق ، وطُلِّقَتْ فعلاً ، وتزوَّجَتْ من صديقٍ له .

لو كانتْ مصرية لكان في الأمر نَظرٌ . كنا نقول : إنَّ أهلها زوَّجُوها رغماً عنها من رجل لا يستحق الحبَّ ، ولكنّها أجنبية ، هَجَرَتْ بلادَها بمَحْضِ اختيارها ، وعَرَفَتْ زوجها الشهورَ أو السنين قَبْلَما تتزوَّجُهُ .

فهذه الطائشَةُ تَسْتَبْدِلُ الرجالَ كما تشاء . أخذتْ شبابَ رجلٍ وأعطته أولاداً ، ثم زَهِدَتْه وتخَلَّتْ عنه هو وأولاده لتأخذ شباب رجلٍ آخر وتعطيه أيضاً أولاداً .

ليس الذَنْبُ ذَنْبَها وحدَها ، وإنّما أيضاً ذَنْب الذي أغواها ، فهذا الرَّجلُ الذي يدْخُلُ بيتَ صديقٍ له ولا يَتحرَّجُ مِنَ النظر إلى زوجَتِه نظرةً خائِنَةً ، ثم لا يتحَرَّج مِنْ تَطْليقِها ، غير مكترِثٍ بالصديق والصداقة ، هازِئاً بحرمة الزَّوْجِيَّة

وحُرْمَةِ الأمومة والأبوة . . هذا الرجلُ ، بماذا يُحْكَمُ عليه ؟! .

مروءةُ الرِّجالِ تَقْتَضي بأنه إذا رأى المرءُ بادرةَ هذا الحبِّ الشائِنِ وَلّى الأدبار ، ووضَعَ بينَه وبينَه حَدّاً ، لأن في هذا الحبِّ خراباً ودماراً . أيُّ مشهدٍ أشدّ ألماً للنفس من رجلٍ يجرُّ قدميه ويجرُّ ولدَيْه ساعةَ الغذاء في الطرقات ليشتري من بقّال طعاماً ، لأنه لا يسيغ للطعام مَذَاقاً ، لأنّه مطعونٌ في قَلْبه بخِنْجَرٍ من يد صديقِهِ ومن يَدِ زوجَتِهِ ؟! .

الصّاوي

ينسى الكاتِب حين قال : « لَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبها وحدَها ، وإنَّما أيضاً ذنبُ الذي أغواها ، فهذا الرجل الذي يدخلُ بيتَ صديقٍ ولا يتحرَّج من النظر إلى زوجته نظرةً خائنةً . . » المذنب الثالث وهو الرجلُ الذي رَثى له الكاتبُ ، أعني الزوجَ الذي أدْخلَ أصدقاءَهُ على زوْجَتِهِ ، وهي قد تكون مَلَكاً في الجمال ، ولن تكون مَلَكاً في الطبيعة ، وكذلك الأصدقاء . ومع أنَّه يَنْسى المُذْنِبَ الثالث لا يذكر منشأ الذَّنْبِ والفَسادِ ، وهو السُّفورُ والاختلاطُ ، وبذلك يكون الكاتِبُ قد نَسيَ المذنب الرابع أيضاً ، وهو كل مَنْ يدعو للسُّفورِ بلسانِه أو قَلَمِه ويدافع عنه ، والله لا يغْفِرُ لهذا المُذْنِبِ ، وإنْ غَفَرَ للأوّلِين ! ومحطُّ العَجَبِ كلُّ العَجَبِ أنَّ الكاتِبَ لا يرى نَظَرَ الأصدقاء الداخِلِين على زوجة الرجل نظرةً خائنةً ، طبيعياً بمعنى أنّه مقتضى الطبيعة المُنْتَصِرة على كل شيء ! فهذه الحكايةُ المنشورةُ بقلَمِ الكاتِب الذي هو من ألَدِّ أعداءِ الحجاب حجةٌ قاطعةٌ عليهم ، وأنَّهم مَهْما أنكروا الحقَّ الواضِح ، وأصرُّوا على دعواهم ، فهي لا بدّ أن تَفْضَحَهُم بلسانِ المُشاهَدِ ، مثل (استانلي باي) ! ولا بُدّ أنَّهُم مخرِّبون بيوتهم بأيديهم كما وَقَعَ لكاتب (ما قل ودل) في هذه الحكاية .

ومِنْ أباطيل القاصرين لمضرَّةِ السُّفورِ على المرأة الشرقية التي تقلّد المرأة الغربية ، قولُهم : إنّ الرجلَ الغربيَّ يرى منذ طفولَته النساءَ عاريات الأعضاء

الكثيرة ، وينشأ بينهن ، فلا تهيجه تلك الأعضاء ، في حين أنها تهيج الرجل الشرقي الذي لم يألف رؤيتها ، وهو حديث العهد بها . وهذا قول باطل ، وإن كان في صورة الحق من حيث أنه متضمن لتحذير المرأة الشرقية من تقليد الغربية ، حتى أنك تحسبه من كلام أعداء السفور ، لكنه من ناحية أخرى يبيحه لها في المستقبل إذا تقادم عهد السفور فينا وحصلت الإلفة به لعيون رجالنا ، بل إن مغزاه إباحة سفورها حالاً بتخفيف وقعه في النفوس وطمأنتها بالإلفة المستقبلة ، وهو مع هذا مبني على دعوى غير صحيحة من كون الرجال في الغرب لا يهتمون برؤية ما تكشفه النساء هنالك من أعضاء لها جاذبيتها ، فهل نساء الغرب إذن يعملن ما يعملن من التأنق والتفنن في الانكشاف عبثاً لا مطمح لهن به ولا مطمع عند الرجال ؟ وهل ليس هناك أيضاً مطمح عند النساء للرجال الذين وضعوا أسس المدنية الغربية ومراسمها الاجتماعية حين أدخلوا فيها حفلات الرقص مع النساء ومخاصرتهن في أعرى ما يكون عليهن من لباس الزينة ؟ فهل هم عابثون بعقول أنفسهم ؟ وهل هن عابثات بعقول أنفسهن ؟ أم المدعون منا بأن المرأة الكاسية العارية في الغرب لا تثير رغبة الرجل ولا تثير عينيه ، عابثون بعقول الشرقيين المسلمين ؟! فالحق أن هذه جرأة غريبة مدهشة من دعاة السفور ، تدلك على مبلغهم في الإقدام على هذر القول ، وأغرب منه اقتناع كثير من العقلاء بقولهم هذا ، مع كونه من الوهن بحيث لا يقاوم شيئاً قليلاً من النظر والتفكير .

نعم ! إن للغرب إلفة بإسراف النساء في السفور والاختلاط بالرجال مع الإلفة بما ينطوي ذلك عليه من المفاسد ، فيظن الغافل أن السفور والاختلاط لا يفعلون في تلك البلاد فعلها الطبيعي ، وقد لفتنا النظر فيما سبق إلى أن النساء السافرات لا يكتفين بالكشف عن أعضائهن بحد ما يكشف عنه الرجال من أعضائهم ، في حين أن غاية ما يطلب لهن من الحقوق هي المساواة بالرجال ، فلا بد أن يكون مغزى لهذا الفرق العظيم بين الجنسين في التلبس والتعري ، ولا بد أن يكون مغزاهن في الميل إلى التعري ، سواء كان في الشرق أو الغرب ، هو تغذية عيون

الناظرين . ولو صَفَحْنا عن وجود هذا القصد فيهنّ ، فالتغذّي حاصِلٌ لا محالة ، فالشرع الإسلامي الذي يقول : « العَيْنَانِ تَزْنِيانِ ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيانِ » وطَبْعُ المسلم الغَيُورِ على عِرْضِهِ لا يقبلان أن يستَمْتِعَ من المرأة بأيّ صورةٍ من صور الاستمتاع مَنْ لا حقَّ له في ذلك .

ومن العَبَثِ الواضحِ بالعقول ما قَرَأْتُهُ بالجرائد نقلاً عن مقال مكتوب في مجلة غربية « رِيدَرزْ دَيْجِسْت » تَعُدُّ فيه الصِّفات التي يجب أن يتحلّى بها الشابُ العصري : « كذلك يجب أنْ يَتَعَلَّم الشابُ الرقصَ ، لأنّه بجانب كَوْنِه رياضة بدنية ، فهو فنٌ ينمّي فيه روح الفضيلة ، ويعوِّده النظَر إلى الجنس اللطيف بعين مجردة من الخِسّة والشهوات » يُفْهَمُ مِن هذا أنَّ المدنيةَ الغربيةَ تواضعَتْ مع المتمسِّكين بها على أن تُباع الرذيلة في سوقها باسم الفضيلة ، وسَبَبُ نِفاقِ هذا البَيْع أنه يتضَمَّن لذةً ماديَّةً للمتبايعين ، فيُهْتِكُ في سبيلها الحياء ، ويسمِّي الاعتيادَ على قضاء الشهوة فضيلةً وتجرُّداً عن الشهوة والخِسَّةِ ! ويُغالي في الجرأة ، فتُعاب على الإسلام فضيلَتُه المانعَةُ من سفور النساء واختلاطهن بالرِّجال الأجانب ، حتى يحتاج الإسلامُ من هذه الناحية إلى دفاعٍ يمتدُّ على طول اعتداءات العابثين ، في حين أنَّ الحضارة الغربيّة القاضية على الفضيلة ، والمبنية على أساس قضاء الشهوة ، سالمةٌ من التعييب والاتهام ! وهذه المعاكَسَة بالحقائق تروجُ بفَضْلِ تعصُّب الغربيين لما يُنْسَبُ إليهم من تقاليد وضلالِ أبناء المسلمين صراطَهُم المستقيم ، ولو لَمْ يكُنْ مِنْ وراء هذه الحياة المختلطة ما يؤيِّدُها من قوة الغرب وشوكَتِه لعدَّت سوادُ وجهٍ لأيِّ قوم اختارها ، ولهذا كانت مسألةُ النساء أعظم حاجزٍ بين الإسلام والمَدَنية الغربيّة ، فالمسلمُ لا يقبَلُ الحياة العارية المختَلِطَة لنساءالمسلمين ما دام يصحّ له إسلامُه ، والغربي لا يَرَى كَحِجَابِ النساءِ أكبرَ مانِعٍ في اختيار الإسلام ديناً له ، وربما لا يشكُّ في كَوْنِهِ أحقُّ الأديان بالقَبُول ، لأنه يَصْعُبُ علَيْه فِراقُ ما تعوده من الحياة المختَلِطة بالنساء ، وفيها حظ للنَّفسِ عظيمٌ ، وفضلاً عن الغربي الغير المسلم ، فصاحبُكَ المُتَفَرْنِجُ لا يصافيك المودّة

والإلْفَة حين يراك لا تبيحُه مخالطة نساء بَيْتِكَ ومجالَسَتِهِنَّ في حضورك وغيابِكَ .

نعودُ إلى قول كاتب المجلة ؛ فالرجالُ الَّذين يحضُرون حفلاتِ الرَّقْصِ المُزْدَهِرَةِ بمختلَفِ الأنوار ، ويخاصرُون فيها النساء العاريات عن الثياب إلا قليلاً كالمعدوم ، كأنَّهم على ادِّعاء كاتب المجلة يخاصرون قِطَعاً من الخَشَبِ من غير أن يشتَهُوا شيئاً من أولئك المُشْتَهيات ، وكان سهلاً على الذين آمَنُوا بِمِثْلِ هذه التُّرُّهات أن يضَعوا الحجاب على عقولِهم من أن يضعوا الحِجاب على النساء ، فتَعْساً لهم .

وقد ذَكَّرني قولُ تلك المجلة ما كنتُ قَرَأْتُه في بَعْضِ جرائد تركية قبل بِضعِ سنين ، والجرائد يومئذٍ تتسابَق في المماشاةِ لِمَرْضاة حكومتها اللادينية الراغبة في انكشاف النساء واختلاطهن بالرجال : « إنَّ الحياةَ المختَلِطَة الحرَّةَ لا يَنْظُرُ فيها أحدٌ إلى امرأةِ أحدٍ نظرةَ سُوء ، والمحاذيرُ المتصوَّرَةُ فيها إنَّما تَجْرِي في الَّذين لم يَتَأَدَّبُوا بآداب المَدَنِيَّة ، ولم يَرُقَّ ولم يَرْقَ إحساسُهم . نعم ! إنَّ الرَّجُلَ عند أوَّلِ عَهْدِهِ دخولاً في تلك الحياة ، ورؤيَتِهِ النساءَ الجميلات المتجرِّدات حوله يندهش ويستحيي ، ثم تثورُ نفسُه الأمَّارة بالسوء ، لكنَّ مُتَعَوِّدَ هذه الحياة ، الناضجَ الشعور والإحساس ، يدخُلُ مَثلاً حَمَّاماتِ البحر ، ويَرَى على الشاطىء أو في مُلْتقى البحر به حيث لا يجاوز الماء قدر شبر ، نساءً عارياتٍ من أَنْفَسِ النفائس ، ولا يَخْطُرُ ببالِه إغواءُ الشَّيْطان أو إغراءُ النفس الأمَّارة . ثمَّ إنَّ هذا الرجلَ يرقُصُ مثلاً في حفلةٍ ساهرةٍ مع النساء الأشباه العاريات ، عَيْنُهُ إلى عَيْنِها ، وجسْمُه إلى جِسْمِها ، من دون أن تتحرّكَ منه شَعْرَةٌ ، وهو بالعكس يمارسُ عرقه الضعيف حيال المرأة ، وينضُجُ ، ويربِّي نفسه الأمَّارة ، ففي هذه الحياة المدنية أمْنٌ على العِفَّة وارتياحٌ للنفس معاً ، فقد حكى لي واحدٌ من الرَّاسخين في هذه الحياة أنَّهُ رأى امرأتَهُ يوماً عند طاهي منزلِهِ (طوسون) وهي سافر ، فنهاها ، وعهدي به أنه يُدْخِلُ زوجتَه كلَّ ليلةٍ على أحبابه فيراقصونها ، ويختلون معها ، فمِنْ أجلِ ذلك

تعجَّبْتُ من قوله ، وسالتُ : ألَسْتَ انتَ تُدْخِلُها سافراً على كلّ أحدٍ ؟ فأجاب : إنهم لا يقاسُون بالطاهي (طوسون) لأنَّهُم يدرون أن يحترموا المرأة ، وهو يعتبرها مخلوقاً يؤكَلُ مثل الكُمَّثْرَى » .

فانظرْ قولَ هذا الكاتب وتَعَلَّمْ إنْ لم تَكُنْ ذا عِلْمٍ بأنَّ مخالطي النساء ومراقصيهنّ بين أيديهم ، ويقصدون بذلك إلى تربية نفوسهم الجامحة ، وتعويدها ضبط شهواتها ، واجمع هذا القول إلى كاتب المجلة الغربية ، ثم اقضِ منهما العَجب ! .

ولعلَّك يَقَعُ في مخيِّلتِك أن المتعوِّد لمجالسة النساء وملامستهن لا يكون كحديث العَهْد بتلك الأحوال ، وأنَّ لحالة التعوُّدِ والتكرار حُكْماً ليس في حالة الابتداء ، وهذان الكاتبان اعتمدا في تغرير القارىء على وجود الفَرْق بين الحالتَيْن ، ونحنُ لا نجْتاز هذه النقطة لكونها مِنْ أبْدَعِ دعائم السفور التي يَسْندُ دعاتُه مغالطاتِهم إليها ، وهي على شِدَّة بطلانِها أشبَهُ شيءٍ بالحقّ ، فَنَحْنُ لا نجتازها من غير تأديةِ حَقِّها ، وفي مثل ذلك مَيْزَةُ مقالِنا عن موضوع السُّفور ، فنقولُ : يجب على المسلم اليَقِظِ أنْ يَسْأَلَ الدعاةَ المغالطين الذين يريدون أنْ يُنْزِلوا الناس مَنْزِلَةَ الحمقى : إذا كان واضعُو الحياة الحديثةِ المختَلِطَةِ وضعوها لإزالة تأثير أحد الجنسين على الآخر وإخماد الشهوة المتقابلة بينهما ، فماذا الغَرَضُ من هذا الوضعِ المضاد للطبيعة ، وما هي الفائِدَةُ المجنِيةُ منْه مع أنَّ مصلحةَ الناس في إيجاد اللَّذَّات لهم دون إعدامها ؟ وماهي الفائدة في تنزيل قيمةِ أحد الجنسين عند الآخر بإزالة ما بينهما من حرارة الجاذبية وإبدالها بالبرودة والجمود ؟

ثم نقول : نعم ! إنَّ متعوِّدَ الشيء ليس كالمُبْتَدىء الحديث العهد به ، إلا أنَّ هنا نقطةً في غاية الأهمية يلزم التنبُّه لها ، وهي أنَّ مناسَبَةَ الرجل بالمرأة المستجْمِعَة لأسباب الجاذبية إنِ اقتصرَتْ على مجالسَتِها والتماسّ الحاصل بين أعضائهما عند التفافهما متراقصين ، فتكَرُّرُ هذه الحالة مهما كَثُرَ فلا يسَكِّنُ التمايلات الجنسية

ولا يطَمْئِنُها ، وبالعَكْس يُثيرُها ويُشَدِّدُها ، وأنتم مهما أكْثَرْتُم من المناسبة بالنساء على أن تَذْهبوا بها إلى حَدٍّ فتَقِفُوها عنده ، مهما أكْثَرْتُم من أعدادِها وأنواعِها ، فلا تكونون قد أرْوَيْتُم بها أنفسكم ، وإنّما ازدَدْتُم ظمأً على ظمأٍ ، فيكونُ مفعول التعوُّدِ هنا بالعَكْسِ ، فإن كان في الدنيا شيءٌ لا يُقْنِعُ بقدر ما نيل منه ولا يستغنى به عن الوصول إلى غايته ، فذلك الشيء هو ملاقاةُ المرأة ومماسَّتُها ؛ وما أصدقَ قولِ الشاعر :

وَكُنْتَ إذَا أرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً
لِقَلْبِكَ يَوْماً أتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أنْتَ قَادِرٌ
عَلَيهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أنْتَ صَابِرُ[1]

وَعَليه ، فدعوى التأمين على أنَّ إغواءَ الشيطان وإغراءَ النَّفْسِ الأمارةِ في ملاقاة الرجل بالمرأة يزول تأثيرُهما بتكرار الملاقاة وتعويدِها النفس في حياة العِشْرَةِ الجديدة المدنية ، باطلةٌ غير مسموعة .

نعم ! إنّما يسلَّمُ بحصولِ نوعٍ من شِبعِ العَيْنِ وصمَمِ الإحساس في التمايلات الجنسية برؤية الكثيرات من النساء والتلاعب بهنَّ بشرط واحد ، هو أن تنضمّ إلى هذه المقدّمات نتائجها الطبيعية ، فينتهي عند ذلك غلواء رجال الحياة الجديدة ، ويسكُنُ جماحُ أنفُسِهم ؛ لكن تأمين العِفَّة لحياة العِشْرَةِ الجديدة بهذه الصورة يكون كوضع عدم الأمن موضع التأمين ، وقصاراه أن تكون عيون رجال

---

(١) فلو لم يكن عصر السفور والاختلاط قضى على العشق القديم الذي كان قد يؤدّي إلى موت العاشق أو جنونه ، لقلنا : إنّ هذه المناسبة بالمرأة الجميلة الواقفة عندما يكون الرجل معها في أندية الرقص والسهر ، توقعه في مخالب العشق وتُميته أو تجنّنه . لكن عصرَ السفور والاختلاط عصرُ ابتذال المرأة يُغني الجنسين عن العشق ويحقّقُ قولَ الشاعر القديم الذي هو مقولٌ لهذا العصر أكثر من كونه مقولاً لعصره :

صَـاحِبُ عَـزَّةَ الَا حُبُّ غَـانِيَـةٍ ... في وَصْلِ غَانِيَةٍ مِنْ وَصْلِها خَلَفُ

الحياة العصرية شَبْعى تجاه النساء بفَضْل اللاتي لقوها منهنّ وقضوا أوطارَهُم منها ، فلو أمْكَنَ أن يُقال : شَبْعى تجاه اللاتي يلقونَهُنَّ بفضل اللواتي لم يلقوهنَّ لا عتبرناه تأميناً حقيقياً . فهذا تحليلُ مغالَطَة أنصارِ السُّفور والحياة المختلَطة ، وقول كاتب الجريدة التركية « إن في هذه الحياة أمْنا على العِفّة وارتياحاً للنفس » يكفي بعضه في نقض بعضه .

أمّا سِتْرُ الرجلِ المدنيّ المحكى زوجتَه عن الطاهي (طوسون) ، فسببُه عدم اعتباره أهلاً لأن يخالط نساءَ مَنْ هم في طبقَتِهِ ، والحياة المدنيّة المختلطة تتطلّب الكفاءة في مشتركيها ، فيلزم أن يكونوا من الذين يدْرُونَ آداب الاستفادة من جمال المرأة ويَقْدِرون مقابل ذلك على الإفادة ، وكلا الشرطين لا يوجد في الطاهي (طوسون) .

وإني لا أقْبَلُ الاتهام بسوء الظنّ في تحليل هذه المسائل ، فتلك الحياةُ منطويةٌ لا محالة على مفاسد لا تَتَّفِقُ مع العِفّة ، إلا أنَّ التجاهل بالمفاسد يقوم في تلك الحياة مقام العفّة ، ويسيغُهُ كونُ تلك المفاسد معتاضة بأمثالها[١] .

ولو فَرَضْنا أنَّ هذه الأزياء العصرية للنسوان ، البليغة في التزين المكشوف ، الحَرِيَّة بِغُرَفِ الزُّفاف ؛ والاختلاطَ الخليعَ في تلك الأزياء بالرجال الأجانب ، والتراقصَ معهم ملتفات بهم ساقاً لساق ، ووجهاً لوجه ، وصدراً لصدر ؛ لو فرضنا فرضَ المحال أنَّ هذه المقدِّمات لا تَجرُّ الجنسين إلى ما وراءها من المفاسد ، فحَسْبُها هي نفسها مفسدة ، إذ لا يُسوِّغُ الشرعُ الإسلامي ولا الطباع السليمة أنْ يَقْضيَ الرجالُ الأجانب بعضَ شهواتهم من أجسام زوجَتِكَ وبناتِكَ وأخواتِكَ ،

---

(١) وكثيرٌ من الكتاب يعيبون على شعراء الشرق السالفين إسرافهم في الخلاعة وهجنة القول عند التشبيب . وإني أقول : كان الفسوق عندهم من المخيلات الصعبة الوصول ، لكن تقليد الغرب في سفور النساء واختلاطهن بالرجال نقل الفسقَ من الألسن إلى الأعمال ، فأصبحت مواصلة النساء من الأمور العادية التي لا تُذْكَرُ .

ولا أن تقضي أنتَ ذلك من أجسام زوجاتهم وبناتِهم وأخواتِهم ؛ كما لا يسوِّغان أن يقضوا هم ولا أنت منها تمامها ، وشريعَتُنا الغيُورُ تحكمُ بلَمْسَةٍ واحدة بين الرجل والمرأة الاجنبية من تلك اللمسات الخليعة المنطوية على الشهوة بالمصاهرة بينهما ، فتحرِّمُ أصولَ أحدهما وفروعَه على الآخر .

ولنسمع هنا لقول كاتب مصريّ يتعلّم في جامعة غربيةٍ :

« إن نظامَ الاختلاطِ بين الشابِّ والفتاة في سنٍ مبكرة معدومٌ في مصر ، لا يكاد يكون له أثر إلا في بعض أسرنا الأرستقراطية من الذين عاشوا رَدْحاً من الزمن في أوربة ؛ أمّا في مصرَ ، فإنّ الشّابَ والفتاة يبقيان من عهد طفولتهما منفصلينْ تمام الانفصال ، فيحرُمُ عليهما الحديثُ حتى بين أولاد الأسرة الواحدة وبناتِها ، ويحلِّلُونَ تحريمَهُم هذا بأنّ ذلك الحاجز الذي أقاموه بينهما يَمْنَعُ ما قد يحدث من أهواء الشباب . ولو فكَّرُوا مليّاً لوجدوا أنَّهم مُخْطِئون خطأً كبيراً ، وأنَّ نتيجة ذلك على عكس ما كانوا يظُنُّون ، ففي هذه الحالة يعملُ كل منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنِعَ اختلاطُهما من أجلِهِ ، فكأنَّهما يحطِّمان ذلك الحاجز انتقاماً من ذَوِيهما ، وزِدْ على ذلك ما يتكبَّدُه الاثنان من ضروب التفْكير العميق الذي يفكِّرانه في سبيل الوصول إلى بعضهما ، وجعْلَ ذلك بطرق خَفِيةٍ حتى لا يدري أحدٌ ما يدورُ وراء الستار ، وهذا التفكيرُ العميقُ يضرُّ كلّاً منهما ، فتجدُ الفتى واجماً في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة ، وربّما يشرح المدرِّسُ نظريةً هندسيةٍ بينما هو يفكر في موعد لقائها ، وكذلك الحالُ مع البنت ، وكثيراً ما كان لهذا التفكير أثرُهُ في مجموعها العصبي ، وما مرض الهسْتِرْيا الذي يصيبُ كثيراً من فتياتِنا في سنِّ الإدراك إلا نتيجةٌ لهذا . فلو أنَّ هذه الحواجِز التي يقيمها الآباء أُزِيلَتْ ، وغُرِسَ في نَفْسِ كُلٍّ من الفتى والفتاة الأخلاق القويمة ، ونشأ من حداثة سِنِّهما مختلطين ، لضَعُفَتْ تلكَ العاطفَةُ الجامِحَةُ إلى حينٍ ، وقَوِيتْ على أنقاضها الصحبةُ الجميلةُ التي لا تتعدّى النزعة البريئة والاختلاط الذي يوقظ في النفس حبَّ الجمال ، لأنه جمال فقط ، لا للعبَثِ

والنزول به إلى النوع التجاري الرخيص . وإننا لنقرأ كثيراً في صُحُفِنا المحلّيّة عن بنات بعض الأسر وهربهن مع الخدم إرضاءً لنداء تلك العاطفة التي زادتْها هياجاً القوانين الشديدة التي فرضتها نُظم الأسرة على أولئك الفتيات العَذارى » .

« وإنه ليُعْجِبُني كثيراً نظامُ الاختلاط في الأسرة الإنكليزية ، فتجد الطفلَ يصاحِبُ طفلةَ الجيران ، ويلعبان معاً في حديقة منزل أحدِهما ، ويبقيان على ذلك حتى سنّ الشباب ، فيتدرّج من اللعب معها إلى الزمالة في الدراسة ، ثم دعوة كلّ منهما لصاحبه لتناول الشاي ، وكم يكون فَرَحُ الأم أو الأب إذا ما أخبرهما ولدهما أو فتاتهما أنه سيأخذ أو ستأخذ شابّا اليوم مع صديقته أو صديقها ! يرحِّبان بصديقةِ ولدِهما ، ويظهران لها من ضروب العَطْف والحنان ما تسرّ له وترفع صديقها في عينها وتحترمه الاحترام كله . تزامله في دراسته العالية في الجامعة ، فتكون نِعْمَ الصحبة ، يعيدُ مَعَها محاضراتِه ، فيتفهّمان معاً ، ويكونان عَضُداً لبعضهما ، فيستفيد منها الدقة في العمل ، وهو دأب الجنس اللطيف ؛ وتستفيد منه بما جبل عليه الرجل من الصبر على المكاره ومواجهة الصعاب بثغر باسمٍ ، فيستفيد كل من صاحبه ، ويخرجان آخر العام يشدّ كل على يدِ زميلته ويهنّئها بالنجاح » .

« والسبَبُ في تقدُّم الطلبة الإنجليز مع صعوبة الجامعات والإرهاق في العمل بسيطٌ ، لو عرفنا ظروفه واستوعبنا قليلاً منه لوجدنا أنه لا يفوق ذكاء المصري في شيء ، ولم يُخْلَقْ من مادةٍ غير التي خُلِقَ منها المصريّ ، وإنما حُصِرَ تفكيرُه في عَمَلِه وعدم تشعُّبه في مقابلة فتاته أو كيفية محادثتها . لم يفكّر في ذلك وهي بجانبه في المحاضرة وفي المعمل ، تبسُمُ له ابتسامةً بريئةً كلما تقابلت نظراتهما ، ثم يعود كل إلى إتمام عمله بهمةٍ ونشاطٍ » .

محمد حامد شاكر

القسم الفسيولوجي ـ جامعة ليفربول

يحدِّثُ الكاتِبُ الطالبُ قومَه ويرشِدُهم إلى ما رآه في الغرب من منهجِ التربية الاجتماعية ، وحَبَّذَهُ ، من دون توجيه أي نظرة أو أهمية على دين قومِهِ وآداب آبائِهِ وأجدادِه ، وإلى أن قُرّاء مقالِهِ هذا المنشور في الأهرام بعنوان (أثر البيئة في الاجتماع) لم يُعْدَموا ـ وعلى الأقل فيهم من لم يعدموا ـ بعدُ ميزان عقولهم .

فهل يضمنْ لهم الكاتب أولاً أنَّ نظام الاختلاط بين الشاب والفتاة الذي نوه بوجودِهِ خاصة في بعض الأسر المصرية الأرستقراطية من الذين عاشوا رَدْحاً من الزمن في أوربة ، كان نافعاً لهم وحميدَ الأثر ؟

ثم إنَّ الكاتِبَ الطالِبَ جدُّ عارفٍ بأنَّ ما يحصل في اختلاط الجنسين ـ ويسميه الصداقة البريئة أو النزعة البريئة أو الابتسامة البريئة ـ وقد يضاف إليها طبعاً التخاصر والاعتناق البريئان ، لأنَّ الزميل والزميلة الناشئَيْن على آداب الحضارة الغربية لا بد أنَّ يتراقصا في بعض الأحيان ـ كلُّ هذه البريئات ، مع ما تُوقِظُ في النفس من حُبِّ الجمال ، لأنّه جمال فقط كما ذكره الكاتب ؛ أسماءٌ وأوصافٌ كاذبةٌ تُذْكَرُ لمخادَعَةِ السُّذَّجِ ومكافحة الحياء الإنساني تحت ستار الألفاظ البريئة المستعملة في غير مواضعها ، مثل ما يفعل بعض اللصوص فعله تحت اللثام ، وهذا كما يُسمِّي دعاة السُّفور أنفسَهم أنصارَ المرأة ، ودعاةَ الحجاب خصومَها ، والله يعلَمُ مَنْ هُم الأنصارُ او الأعداء ، كما يعلم المُفسِدَ من المُصْلِح .

وانْظرْ إلى قول الكاتب عن نتيجة وضْع الحجاب بين الشاب والشابة ، « ففي هذه الحالة يعملُ كل منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنّما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنِعَ اختلاطُهما من أجله » فكأنَّ الجنسية الخاصة بكلٍّ منهما لا تبقى عند إباحة الاختلاط بينهما ، فينقلب كلاهما ذكراً أو كلاهما أنثى ! .

ثم لماذا يكون اتصاله بصاحبَتِه بريئاً عند إباحة الاختلاط وغير بريء عند منع الاختلاط ؟! فإنْ أتى الفسادُ من المَنْعِ كما سيأتي بيانُه لا من طبيعة المختلطين

فلا شك في أنَّ مُباحَ الاختلاط أيضاً ممنوعٌ من الاتصال الغير البريء ، فيلزم أن يكون فاعلاً لما مُنِعَ « فكأنَّهما يحطِّمان ذلك الحاجز انتقاماً من ذَويهما »، وهذا كما يقال : إنَّ الإنسان حريصٌ على فعل الممنوع ، فكأنَّهما لو لم يُمنَعا عن اتصال أحدهما بالآخر ، ولم يُقَم بينهما حاجز ، لما تهالكا على هذا الاتصال الممنوع ، وعليه فقد يكون في دعاوى أنصار السُّفور أنَّ الحجابَ أدْعَى إلى الفِتْنَةِ ، وأنَّهُ يشتَمِلُ على مفاسد يضيقُ عنها نطاق السُّفور وإباحة الاختلاط ، وربمًا تسمَعُ مثل هذه الكلمات منهم ، وكلُّهُ سَفْسَطَة وتَضْليل ، إذْ لَوْ كان المَنْعُ عن أيِّ فِعْلٍ يؤدِّي إلى وقوع ذلك الفعل أكثر مما إذا لَمْ يُمْنَع وتُرِكَ مُباحاً لانعكس موضوع الأمر والنهي ، وأصبح الحاجِزُ وسيلةً ، والوسيلةُ حاجزاً ، ولزم إلغاء قوانين العقاب الموجودة في الدنيا لكون مفعولها في المجرمين الحثّ والتحريض على الإجرام انتقاماً من واضعي القوانين ، ولو قال الكاتب : اغتناماً للفرْصَة التي لا تواتي كلَّ حين مع الحجاب الحاجز لكان أشبه بالحقيقة . أمّا إذا لم يكُنْ بينهما حجاب ، ولكل منهما الاختلاط والاتصال بالآخر متى شاءا ، فالوقت مُتَّسِعٌ أمامهما ، ولا حاجة إلى التعجُّل ، فأوقاتُهما كلُّها فرص .

وإنِّي تذكرْتُ هنا حكايةً لا أمْضي مِنْ دون أن أورِدَها :

كان رجلٌ وامرأة أجنبية عنه يترافقان في سفر ، فقال الرجلُ للمرأةِ : أتدرين ماذا سيكونُ إذا وصلنا إلى ما وراء هذا الجبل ؟ فقالت : ماذا سيكون ؟ فقال : سأعْتَدِي عليكِ هناك ، فتأبينَ ولا تَسْتَسْلِمين لطلبي ، وتصيحين ، وتستغيثين من غير مُغيث ، ويقع بيننا عراكٌ عنيفٌ لا يتكهّن أحد بمنتهاه . فاستمعت له المرأة ، وقالت : لن يَقَعَ شيءٌ مِمَّا تخافه علي ، لأني سأوافقك على ما طلبت مِنِّي وينتهي الأمر بِسَلامٍ .

نعودُ إلى قَوْلِ الكاتِب : « وزِدْ على ذلك ما يتكبَّده الإنسانُ من ضروبِ التفكير الذي يفكّرانه في سبيل الوصول إلى بعضهما » وفي هذا مضيعة لهما من

الأوقات والمساعي مع إمكان تسهيل الأمر لأبويها » وجعل ذلك بطُرُقٍ [illegible] حتى لا يدري أحدٌ ما يدور وراء الستار » مع أنَّ المجاهرة أولى من العمل في الخفاء ، وأدل على الشجاعة ، وأجدر بالحرية « وهذا التَّفكيرُ العميقُ يضرُّ بكُلٍّ منهما ، فتجد الفتى واجماً في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة » فلو كانت فتاته في متناول يده متى شاء أو بجنبه أو مرأى عينيه لكان هشّاً بَشّا نشيطاً . ولو كان الكاتب مِمَّن يُصَلِّي في المساجد لقال : ولو صلى بجنب الفتيات الحسان في صفٍ واحد ، أو صلّى وهُنَّ أمامَهُ في الصفِّ المتقدِّم يحكين في الركوع أهِلَّةً وفي الاعتدال قضبان البان ، لَوَجَدَ في صلاته لذةً لا يجدُها في المساجد الغاصَّة بالرجال ، وأخذَ الشُّبَّان النافِرون من الصلاة يلازمون المساجدَ« وربَّما يشرحُ المدرِّسُ نظريةً هندسيةً بينما هو يفكر في موعد لقائها » وإذا رُفِعَ الحاجز وأبيح الاختلاط فذهْنُ الطالِبِ يظَلُّ حاضراً معه في كلِّ مكان كما تكون مطلوبته حاضرة فيه « وكذا الحال مع البنت ، وكثيراً ما كان لهذا التفكير أثره في المجموع العصبي ، وما مرض الهستريا الذي يصيب كثيراً من فتياتنا في سن الإدراك إلا نتيجة هذا » مسكينات فتياتنا ، يمرضن من فاقتهن إلى فتيان يؤانسونَهُنَّ ويرافقونَهُنَّ في المدراس والمنازل والشوارع والمتنزهات ، فيسْتَنْشِقْن معهم الحرية والمحبة « وإنا لنَقْرَا كثيراً في صُحُفِنا المحلِّية عن بنات بعض الأسر وهروبهنّ مع الخدم إرضاءً لنداء تلك العاطفة التي زادتها هياجاً القوانين الشديدة التي فرضتها الأسرة على أولئك الفتيات العذارى » !.

لو كان في عَقْلِ الكاتبِ أدْنى صلة بالمَنْطِقِ لتنبَّه لكون هروب بعض بنات الأسر المصرية مع الخدم نتيجة اختلاط الذكر بالأنثى الذي نحذِّرُه نحن ، وهو يدعو له ، فلا يعدّ مثل هذه الحادثات ذنباً على قوانين الأسر المانعة من اختلاط الجنسين ، فهل لا يعتبر الخادم من الذكور أو من الأجانب ، أو لا يعتبر البنت من الإناث ، وهي كما يحب الكاتب تنشأ برفقة الخادم ، وتراه كلّ يوم ؛ فإذا كان الاختلاط بالخادم يكفي في إغوائها فما ظنّك باختلاطها بفتى من طَبَقَتِها ؟ فهذه الحوادث تَنعى على دَعْواه ، في حين أنَّهُ يَسْرِدُها لتدعيمها ! والواجب للآباء

المصريين وغير المصريين أن يختبروا مَبْلَغَ أبنائهم من الذكاء والعقل السليم قبل مبعثهم إلى مدارس الغرب ، وإلا فلا مانع من أن يكتبوا يوماً إلى جرائد مصر يدعون آباءهم وإخوانهم في علانية وصراحة إلى دين الغربيين الذي وجدوه حقاً مستندين إلى عقولهم التي أريناك بعضَ نماذجَ من تفكيرها المعْوَجّ ! .

وإنّي أقول في مختتم كلامي عن مقال طالب الجامعة : لِيَحْلَمَ المصريون باستقلال بلادهم ، فقد استعْمَرَ الغربُ قلوبَ أبنائهم المتعلّمين ! واستعمار القلوب أقوى أنواع الاستعمار وأشدّها خطراً وأفتكها بكيان الأمم .

ومن أقوال دُعاةِ السُفورِ التي يموّهون بها باطِلَهم ، ويظهرونَهُ بمَظْــــهر الحقّ : « إنَّ ضمان العِفَّة في النساء الذي هو جديرٌ بأنْ يُعَوَّلَ عليه هو تعليم المرأة وتَرْقِيَتُها وإنماءُ القوة العقلية فيها وتربيتها وجعلها - أي القوة العقلية - حاكمة على النفس ، فبالعِلْم والرُّقِيّ تقدُّرُ الفتاةُ قدْرَ عِفَّتِها ، وهذا السِّياجُ المتكوَّن من العِلْم والتهذيب يقصر بالنسبة إليه ويضعف بكثير أنْ تكون محتجبة وتعيش في عالم مفترق عن عالم الرجال » .

ونحن لا نعارض لأنْ تكُونَ في الفتاة سجيةٌ تحكُمُ بها على نفسها ، وتسْتَنِدُ إلى التعليم والتربية ، وإنَّما نُعارِضُ أنْ تُعَدَّ مستغنية بها عن الحجاب الذي وضعه عليها الإسلام ، لأنّا كما عرفنا أنَّ سجية الحكم على النفس لا توجد بكثرة في الذين أخذوا نصيبهم من التعليم والتربية ، لا نأْمَنُ أيضاً على إصابَتِنا الواقع عندما فرضنا أناساً من معارفنا حاكِمِين على أنفُسِهم تُجاه المغناطيس الجذّاب الكامن في جمال المرأة ، أو فَرَضْنا فتياتِنا ونساءَنا حاكمات على أنفســهن حيال إغواء شياطين الأنس ، لا سيما العصريين المجهَّزين بالمكايد الراقية ؛ فنقصان الحُكْم على النفس من أحد الجنسين كاف في وقوع الفتنة عند اختلاطهما ، فنحن نخاف كلاًّ منهما على الآخر ، ولا نردُّ الشبهات التي تساوِرُنا ، وإنْ رَدَّها غيرُنا ، لأنَّ الحكْمَ على النفس شيءٌ يسهل قولُه ويصعب فعلُهُ ، وماذا يَسَعُنا أنْ نقول عنا بعد ما قال سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

[١٢ سورة يوسف /الآية :٥٣]

الحاصل : إنَّ الحُكْمَ على النفس شيءٌ لا يحدَّدُ وجودَه وعدَمَه ومبلغَ كفايته ومقاومَتِه ، ويخفى أمرُه في كلّ أحدٍ بحيث لا يطّلِعُ عليه غيرُهُ ، بلْ كثيراً ما يُخطِىءُ الإنسان في تَخْمِينِه لنَفْسِهِ في مثل تلك المواقف الدقيقة الخَطِرة ، ولله درّ الشريف الرَّضيّ القائل :

لَا العَفُّ عَف حِينَ تَمْلِكُ لُبَّهُ
تِلكَ اللَّحاظُ وَلا الأَمِينُ أَمِينُ

لا سيّما وأن قَدْرَ العِفّة في نظر مَنْ لا يتعلّم وجوبها من الدِّين ، بل من المحاكمة العقلية ، لا يجاوز وراء أن يعرفه الناسُ عفيفاً ، وأن يكون مركزُه هذا محفوظاً عندهم ، وهو غير العِفَّة الحقيقية ، فمهما علم قَدْرَ العِفَّة ، ومهما تَمّ عقلُ الإنسان ، وسَلُمَتْ محاكمتُهُ العقلية ، فربّما لا يكفيه ذلك في مثل هذه الأحوال التي هي مَزْلَقَةٌ طبيعيةٌ للأقدام أيُّ مزلقة ، ومن جَرَّاء ذلك لَزِمَ أنْ لا تَسْمَحَ للنَّفْس أَوْلى فرصة وأن تَسُدَ طُرُقَها ، فَحِجابُ المرأةِ معناه حجب طرق الفرصة على النفوس بأخصر وجهٍ . وقد استخفَّ بعضُ كتاب التُّرْك ـ من أنصار السُّفور ـ بقوَّةِ تلك البراقع الحريرية الرقيقة الملقاة على وجوه النساء ، ومع ذلك اعترفَ بأنَّ تلك البراقع تجعل المرأةَ كأنها تعيش في عالم آخر ، فقلت له : إنَّ هذا اعترافٌ مِنْكَ بقوَّتِها ، فتلك الحُجُبُ الرقيقةُ سُجُفُ الحياء الملقاة بين الجنسين ، المانعة من اختلاط أحدهما بالآخر ، تقيِّد اتصال الرجل حتى بزوجته في خارج بيته ، وتحول دون ما يراه الإنسان في بلاد المَدَنية الغربية ، وقد رأيته كثيراً في شوارع باريس بعيني من أن الرجل يمشي آخذاً بيد امرأة يتحدّث معها ويقبّلها في غضونه على مرأى المارين (ومَسْمَعِهم) ولا يلزم أنْ تكونَ تلك المرأة زوجته . فهذه حالةُ تلك البلاد التي يَدَّعي أنصارُ السُّفورِ مِنّا عدم كونِهِ فيها موجباً للفساد ، ويصدِّقُهُم في ادِّعائهم كثيرٌ من الغافلين ، فلعلها قُبلاتٌ بريئةٌ !! ويمكن أن يُسْتَدَلَّ على براءتها بإيقاعها جِهاراً نَهاراً !! .

ثم إنَ السُفورَ بمعناه العصري الذي أوضحناه يعرفُ كلُ الناس أن الإسلام يأباه ولا يقبَلُه . ثم بالرغم من ذلك ترى كثيراً من الكتاب المتَسَمِّين بأسماء المسلمين يدعون له ، ويشجعون المرأة المسلمة عليه ، ويُنحون على من يخالفونَهم باللوائم ، ويعتبرونهم رجعِيين ؛ لا يُعْبَأُ بقولِهِم ومخالَفَتِهم ، وهم على الأقل يستمرون في نقاش المخالفين ، مثلاً ترى كاتب (ما قل ودلّ) في الأهرام ، واسمه أحمد ، وقد صرَّح عند تمجيده لعيد الميلاد بأنَّهُ مسلمٌ مؤمِنٌ بمحمد ﷺ وبسيدنا عيسى الذي كلّم في الـمَهْد صبياً ، وقال : ﴿ إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبياً ، وجعلني مُباركاً أينما كنت ﴾ [١٩ سورة مريم/الآيتان : ٣٠ و٣١]. تراه الفَيْنَة بعد الفينة يصوّب سهام الاحتقار إلى مَنْ لا يرضون بسفور المرأة المسلمة من العلماء والكتّاب ، فهل لا يعرف أنَّ الرجْعَة التي يعيبُها على مخالفيه رجعةٌ إلى الإسلام ! وأنَّهُ بهذه السهام البذيئة يكون يرمي دينَ الإسلام ، وكتابه الذي ينصّ على أنّ النساء يَضْرِبْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ [٢٤ سورة النور /الآية : ٣١] . فلو سألْته ماذا يقول في نَصِّ القرآن واعتنائِه بهذا التفصيل الجليل ؟ فهو لا يحير جواباً ، فكأنَّه يتعَجَّبُ منْكَ ، ويقول بلسانِ حالِهِ : إنَّ مَنْ يعيش في عصر القرن العشرين ، ويسْتَنِدُ في اقتناعاته الاجتماعية إلى القرآن ، فجوابه جواب الأحمق ! ولا يرَى من حقك أن تَتَعجَّبَ مِنْهُ ، وهو مُسْلِمٌ مُثَقَّفٌ يحوم في كتاباته حول مسألة النساء كَيْفَ يجهل أطول آية في كتاب الإسلام عن النساء ؟! فإذا قرأتَها عليه ، وعلَّمْتَه إياها ، ولّى مُدْبراً ، كأنْ لَمْ يَسْمَعْها ! وجعلَ جزاءَ تعلُّمِهِ منك أنْ لا يراك أهلاً للخطاب ، فكيف أنه مُتَعلِّم ؟! وكيف أنّه مُسْلِمٌ يؤمِنُ بما شاء من آيات القرآن ، ولا يُؤْمِنُ بما شاء ، ولا يراه يجدر بأن يكون دليلاً لمُستَدِلّ ؟! .

وهناك بعد آية الحجاب ، أحاديثُ نبوية كثيرةٌ تأمر بسَتْرِ النساء عن الرجال الأجانب ، وتنهى عن الاختلاط بهم ، لكنَّ الكاتِبَ وأضرابَه لا يعْبأون بالآيات والأحاديث المتعارضة بتقاليد المدنية الغربية مهما فضحت مغبَّتها ، كأنهم رُسُلُ تلك المدنية في الشرق بعد رسل الله ، تَنْسَخُ أنباؤهم عنها أنباءَهم عنه ! وبالرغم من معارضة هؤلاء الرُّسُلِ المُحْدثين لرسل الله ومحاربتهم من وراء الستار ، فإنهم مؤمنون بالله ورسله ومسلمون ! إن كانت دعوى الإيمان والإسلام تتفق مع هَدْم معالمه[1] ؛ والناس في هذا الزمان العجيب لايَهْتَمُّون بتشخيص أعداء الإسلام المختَفِين تحت أسماء المسلمين النائلين منه في بلاده مالم يَنَلْ كتَّابٌ من غير الأمّة المنتسبة إليه ، لسهولة اجتراء الأولين عليه تحت جُنَّةِ الأسماء وسهولة استماع الناس منهم . وفي مصر كُتَّاب مسلمون بالأسماء والادِّعاء ، خرجوا على دين قومِهم ، فقامت الأمّة ضدَّهم ، ثم ما لبِثَتْ أنِ اعتبَرَتْهم تائبين ، وأعادتهم إلى حظيرَتِها ، وسلَّمَت إليهم مقادَتِها ! فلو لم يَكُنْ لهم شفعاء من أسمائهم لما سَهُلَ عليهم الظهور بمظهر التائب ، ولما قَبِلَ الناسُ توبتَهم ، ولو كان الناس مشفقين على دينهم إشفاقَهم على أموالهم لأخذوا حِذْرَهمْ من أن يعيدوهم إلى مَأْمَنِهم .

ولا يُعْتَرَضُ عليَّ بأنَّ المسلم قد يُخْطِىء ويقْتَرِفُ ذنباً بل ذنوباً ، ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ الكبائر لا تُخْرِجُ الإنسان عن الدين ؛ لا يُعْتَرَضُ عليَّ بمثل هذا ، لأن معصيةَ الله ورسوله قولاً لا تقاس بمعصيتها فعلاً ، ولا يُمكِنُ أنْ يكون المسلم معارضاً لله ورسوله في أقوالِه وإن أمْكَنَهُ أنْ لا تكون أفعالُه طِبْقَ ما أمر الله ورسولُهُ به ، نذكر له مثالاً عن موضوعِنا ، كأنْ تَسْفِرَ المرأةُ المسلمةُ فعلاً السفور العصري ، وتشتركَ في بعض الحفلات الساهرة بثوبها الغيرِ الكاسي ، بل تعيشُ طولَ عمرها في السفور الحديث ، ماشية على ما يقتضيه من فنون الانكشاف والاختلاط ، ومماشية في كلِّ ذلك هواها النفساني ؛ فيمكن أن تبقى هذه المرأة على

(١) وللكاتب التركي (جلال نوري) رأي كتبه في بعض مؤلفاته ، وهو : إنَّ من دخل في دين الإسلام لا يخرج منه ، لأنّ فيه ختاناً .

إسلامها وإن كان استمرارها عليه يُضْعِفُ جداً احتمالَ بقائِها مسلمة ! فهذا فِعْلُ المعصية لا يعتبر بمجرَّدِه مُروقاً من الدين ، وله دافع يدفعها إليه من الطبيعة الجنسية ، فلعل الله يغْفِرُ لها من أجْلِهِ ، وكذلك موقف الرجل المختلِطِ بها ، المستفيد من سفورها فِعْلاً ؛ أمّا القولُ المعارِضُ لصراحَة القرآن الآمِرَة بسَتْرِ النساء ، فهو أشدّ من الفِعْلِ ، وحسب قائل ذلك مُروقاً من الإسلام ، إذ ليس له دافِعٌ طبيعي غير عدم الإيمان بالقرآن .

فالسفور لا يمكن أن يدْعى له أو يُدافَعُ عنه في بلدةٍ إسلاميةٍ كمصر بقلم كاتِب مُسْلم ، ومن جَرَّاء ذلك كان آخر قولي للداعين والمدافعين أنّ المَنطِقَ والأخلاق والشجاعة يحتِّم عليهم أنْ يقلعوا عن دعوتهم ودِفاعِهم ، أو عن دَعْوَى أنهُم مسلمون ولو بأسمائهم ، وقد آن للحكومات الإسلامية أن لا تَسْمَحَ للملاحِدَة الناشئة في بلادها أن ينْدَرِجُوا في سجل المسلمين إن لم تقدر على أن تعاملهم معامَلَة المُرْتَدِّين . نعم ! إنَّ السفورَ يجْدُرُ به أن يُدعى له جَهاراً في بلاد صَرَّحَتْ حكومَتُها بانتزاعِها عن دينِها ، مثل تركية الحديثة .

وإذا كُنت اعتبرتُ الفِعْلَ المجرّد أهون شراً من القول في المعاصي مثل السفور ، فإني استثني منه ما قرأته في مقالة كُتِبَتْ لِذِكْرى سعد [زغلول] مِنْ أنه هو الذي كشف بِيَدِه الستار عن النساء في محضر بُعولَتِهِنّ ، وعُدَّ ذلك من مَناقِبِه ! لأن فِعْلَ زَعيمٍ عظيمٍ مثل سعد يعتبر كوضع قانون لِحِزْبه وتعليم المُنحازين إليه ، وليس لهذا الوَضْع والتعليم دافعٌ طبيعي إليهما ، فلا يغتفر ذلك الفعل له ، ويلحق بالقولِ والأمر .

وكأنّي بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احتراماً لسَعْد ، أو انتقده عليه قليل منهم من غير تصريح باسمه ، كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد ، لكنَّ النهيَ عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء ، وإنَّ الحقَّ وخاطر الإسلام أكبر من سعد وألف سعد ، وإني تذكَّرْتُ هنا سعداً الصحابي وقول النبي ﷺ فيه : « تَعْجَبُون مِنْ غِيرَةِ سَعْدٍ ! والله لأنَا أغْيَرُ مِنْهُ ، والله أغْيَرُ مِنِّي » .

قد يقولون : إنّ سفورَ المرأة من لوازم النهضة التي يحتاج إليها المسلمون ، ومن أجْلِ ذلك التزمَهُ سعد ! وأنا أقول : العَهْدُ الذي بَلَغَتْ نهضةُ المسلمين فيه أشدَّها لا شك أنه عهد سيدنا عمر الفاروق ، وما بلغت أي أمة في أي أدوارها مبلغ تلك النهضة ، ولن ترى الدنيا مثل ما قام به المسلمون في ذلك العهد الذهبي من الأعمال الجليلة ، ومع هذا ، فإنّ أولَ مَنْ قال بلزوم الحجاب للنساء كان هو سيدنا عمر ، ثم نزل القرآنُ على وفْقِ قولِهِ رضي الله عنه . هذا ، وتأمّلِ الفَرْقَ بين وضْعِ الحجاب بعد أنْ لم يكن وبينَ رفْعِه بعد أن كان ودام طيلة تاريخ الإسلام ، ثُمَّ تأمّل قولَ سيِّدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « لَنْ يَصْلُحَ أمرُ آخِرِ هذه الأمة إلا بما صَلَحَ بِهِ أوَّلُها » .

بقيَ أنَّه لا يجوز لِقُرَّاء مقالتي عن السفور والاحتجاب أن يَحْسَبُوني لا أُوافقُ على تعليم المرأة كما لا أوافق على سُفورِها ، وهذا الحسبان منهم يحتَمِلُ أنْ يكون منشأه أنَّ أنصار السفور يحتكرون لأنفُسِهم نُصْرَةَ تعليمِ المرأةِ أيضاً ، وكل بدعة مضادة للإسلام تروجُ في زماننا باسم العلم ، حتى أنَّ اللادينية يعبَّرُ عنها عند معتنقيها بـ (العلمانية) تمدُّحاً أو تستراً ! وأنت كثيراً ما تصادف هذا التعبير في جرائد مصر تستعمله بمعنى اللادينية من غير حياء من العلم ، ومن غير أدب مع أهل الأديان من قرائها ، يَمنَعُها عن نسبتهم إلى الجَهْل المفهومة من ذاك التعبير ، ولا أقل من احتقارهم بأنّهم لا يفهمون مغزى إطلاق ذلك اللفظ على مبدأ اللادينية .

نعم ! إني لا أمنع المرأة عن التعلم ، ولا من التبحّر في العلوم لِمَنْ يُسْتَشْعَرُ منها النبوغ ، لكن بشَرْطِ أنْ يكون كل من التعلّم والتبحّر في مدارس خاصّة بالنساء لا يخالطهن الطلاب الذكور ، ومدرساتهنّ منهنّ ، فإن لم يوجد فيهنّ من يكفي لتدريس الدروس العالية ، ينتدب العلماء من الرجال يلقون الدروس على طالباتهم المتلثات الشباب وعلى رؤوسهن خُمُرُهُنَّ ، ولا أجيزُ طبعاً بَعْثَ الفتيات إلى بلاد

الغَرب ليتَعَلَّمْنَ في مدارسِها ، وإذا كان لا بُدَّ مِن تلقِّيهنَّ الدروس أمام علماء تلك البلاد ، فاستجلاب عدد منهم إلى بلادِنا وتوظيفِهم بمدارسنا أسهل وأسلم من إرسال أفواج من بناتنا إلى بلادهم يعشْنَ فيها عيشة بنات الإفرنج ، ويعدْنَ بعد سنوات لم يبقَ معهنّ من الإسلام إلا اسمه ، ومن قوميّتهنّ إلا لغتها ، واستمع في ذلك الحين استقبالهن من الصحفيين المتفرنجين بأنواع التحبيذ وأفانين التمجيد ! والإسلامُ ضايعٌ بين هذه الضوضاء المخدّرة ، وما أشدّ غفلة الآباء والأمهات المبتَهجين الفخورين بتلك البنات ! وأي ارتياح واطمئنان للطَّبْع السليم إذا أبْدَلَ الإنسانُ بنْتَه بغيرها ، ولو كانت البَدَلُ أعلَم من المُبْدَلِ منها ؟! .

وليست النهضةُ المنشودةُ للبلاد أن تحصل فتياتٌ من بنات أشرافِها على دكتوراه أوربية في بعض العلوم ، أو تكون لأغنيائها سيارات فخمة يرون الدنيا من شباكها ، وتكون صلتهم بجمهور مواطنيهم أن يصعبوا عليهم المشي في الشوارع حذَراً من مصادَمَةِ سياراتِهم السريعة السير ، والعالم يرى حال الجمهور المصري ، ويرى مَن يَرْكبُ السيّاراتِ العموميةَ أو الترامَ نماذجَ من الرجال والنساء يتنافسون في الركوب والنزول والجلوس ، يحاوِلُ كل منهم أن يشغلَ من المقاعد أكثر مما يكفي لواحد ، ويبقي لجارِه الأقل ، وكثيراً ما يَطَأ رِجْلَه ويذْرُو دخانَ سيجارته على وجهه ، أو يلقي رمادَها على ثَوْبِهِ ، وربَّما ترى بجنبك امرأةً احتضَنَتْ طفلاً يتزاحَمُ الذُّبابُ على مآقيه وشفتيه الملوثة بمُخاطٍ أو بقية طعام ، يُنْدِمُك منظرُهُ على ركوب العَرَبة ؛ وعند المشْي في الشوارع يُثِيرُ عليك عمَّال التنظيف الغبَارَ . قارِنوا ملايين المِصريّات من أمثال أمّ هذا الطفل مع فتيات مصريات من خرِّيجات المدارس العالية الغربية متجرِّدات عن حجابِهنَّ وملتَحِقات بنساء الغرب ، وانشدوا المصريات المهذَّبات الضائعات بين هذين الفريقين ، ولا يستطيع من يعيش بمصر دون أن يَرَى أناساً غارِقِين في التمسُّك بتقاليدِهم ، حتى القبيح منها ، أو أناساً نازعين بكلِّيَتِهم إلى التجدّد والتَّفَرْنُج .

وعند كتابة هذه السطور ، قرأتُ يوميّة الأستاذ الصاوي في الأهرام وهو يسعى جَهْد طاقَتِه لتعميم اختلاط الشبّان بالشوابّ في مصر ليعرفوهنّ ثم يصْطَفُوا منهنّ الزوجات ، وقد أيّدَ مذهبَهُ هذا بنشر خِطاب ورد إليه من الدكتور ص. ن يقول : إنَّهُ ثائِرٌ على نظام مجتمعنا المصري ، وقد قضى عشر سنوات بين ألمانية وفرنسة وإنكلترة ، ورأى مقدار الرجعية التي بُلِيَتْ بها عائلاتنا ! .

وأنْتَ أيّها القارىء قد عرفتَ مما أسْلَفْنا مِنَ القَوْلِ مَدى ذلك الاختلاط والتعرّف والتفنّن فيها ، وتنقّل الشبّان بين الفتيات استيفاءً لِحَقّ الاصطفاء والاستقراء ، ممّا يؤدّي إلى استغنائهِمْ عن الزّواج . وأصدقُ شاهِدٍ على ذلك أنّ أزْمَةَ الزّواج أشدّ والعزّاب أكثر في بلاد الاختلاط منها في الشرق ، لكن الأستاذ الكاتب الذي يَفْتأ يبتّ في مسائل الاجتماع دنيوية أو دينية لا يُثْنِيهِ منقولٌ ولا معقولٌ .

وكنتُ قرأتُ قبل يومين في الأهرام لكاتب (على الهامش) مقالةً تندِّدُ ببقاء الطربوش على رؤوس المصريين ، وتعدُّهُ كارثةً اجتماعية ، ونكبة صحية ، وعنوان الجهل والتأخر ، ولا يرى لَهُ أي اتصال بقوميّة المصريين ، إلا أنّ الأتراك استَعْبَدوهم مدةً من الزمان وتركوا أثرَ ذلك على رؤوسهم ، ثم يُفْتِي الكاتب بوجوب لبس القُبَّعة زي المدنية الذي اختاره اليوم حتى الأتراك أنفسهم بعد نبذ الطربوش ! .

وإني أستَشْعِرُ في هذا القول الشاكي من استعْباد التركِ أثرَ استعبادِ الإنكليز أو استهواء الأتراك الحاضرين في زيِّهم الحديث لهذا الكاتب المصري وأضرابه ، حيث لم تكُنْ قبعة الإفرنج مرغوباً فيها لبعض الشرقيين ، لا سيّما المسلمين ؛ إلا بعد أن اختارها ملاحدة الترك ، فصارَتْ مختارةً لغيرهم ، ونبذُوا الطربوشَ ، فأصبح منبوذاً ، أسْتَشْعِرُ هذا الاستعباد الجديد الذي تضاعف كونه زياً وطنياً لمصر بهمّة جمعية مشروع القرش وما أنفقته في مصنوعاتها ، ولا يكون شيء أدلّ على الجهل والتأخُر من اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخر . هذا مع أنَّ لبس القبعة

لا يجوز للمسلمين كما استوفيتُ حق إيضاحه في تأليف مفرد . لكن في صدر كلّ جريدةٍ مِصْرية مُفْتِين من المسلمين والمسيحيين يُغْنُون عن مفتي الديار المصرية ؟! .

وكان السبب في استئناف مسألة الطربوش والقبعة في الأهرام إمطار السماءِ مساء يوم من أيام الأسبوع الماضي ، أمطرت فأحوَجَتْ بعضَ الطرابيش إلى تجديد كَيِّها ، والمطرُ لا ينزلُ في مصر إلا نادراً ، ولا يكلِّف لابسي الطربوش من المصاريف ما يُذْكَرُ ، ولا يعادل مجموعُه بسعر القبعة لا سيما من نوعها الفخم ، مع أنّ للطربوش من جمال المنظر في عيون الشرقيين ما لا يوجد في القبعة ، ولا يُضَحَّى به لأجرة المَكْوى اللازمة في النادر ، وإنّي أظنُّ أنَّ بعضَ غلاةِ التجديد في مصر جرَّبُوا لبس القبعة في العلانية أو الخفاء فاستقبحوا بها وجوههم ، حتى رضوا بطرابيشهم ! وكم نسمع حسرات الشعب التركي وتشوّقه إلى الطرابيش ، لولا أن السَّيْفَ مُصَلَّتٌ على عنقه .

وبالنظر إلى كلِّ ما يمتُّ بصلةٍ إلى الشرق والإسلام ، حتى الأخلاق والآداب وأستار الحياء وخدور النساء وعمائم العلماء ، أصبح عرضَةً للنَّبْذِ والتبديلِ بأتفهِ الأسباب ، فلا مانع ـ كما كتَبْتُه فيما علَّقْتُه على قول الكاتب الطالب في جامعة ليفربول ـ من أنْ يكتُبَ كاتب في إحدى الصحف بالقياس على قول كاتب الهامش : « إنَّ بقاء البلاد المصرية على الإسلام أثرٌ من استعباد الأتراك الذين صَمَدُوا تحت راية الدولة العثمانية في وجوه الدول الصليبية التي خَضَعَت أمام قوة تلك الدولة قروناً ، وأجمَعَتْ أمرها وشُرَكاءها للعَمَلِ في كَيْدِها وإضعافِها قروناً أخرى ، وعاش الإسلام مدةَ تلك القرون الطويلة مستَنِداً إليها ، ولم يخطُرْ في خَلَدِ أيّ دولة نصرانية فكرةَ تَنْصير أيّ قَوْم من الأقوام المسلِمَة ، حتَّى إذا انْقَرَضَتْ هذه الدولة بعد اللُّتيَّا والَّتي ، ارتدت تركية عن دينها ، وتوالت الاعتداءات على دين الإسلام في أنحاء العالم من الداخل والخارج حتى غدا لا يُحْتَرَمُ في بلاده وبين أبنائه ، وتجرَّأ اليهودُ الَّذِين ضُرِبَتْ عليهم الذِلَّةُ والمَسْكَنَةُ لتأسيس دولة قَوْمِيّة لَهُم في وسط بلاد العرب ، ولا يعلم غير الله مقدار عمر الإسلام بعد هذه العلامات

الباعثة على التشاؤم ! فهل ينبغي للمصريين سلالة الفراعنة ذوي المجد ـ على تعبير هدى هانم شعراوي في خطبتها عن نهضة المرأة المصرية ، الخطبة التي أذاعها الراديو قبل أيام ، فطنّتْ في فضاء مصر ـ فهل ينبغي للمصريين بعد نَبْذ الأتراك أنفسهم الإسلام بفَضْل مجدِّدهم الأعظم ! أن يستمسكوا به وهو عنوان التأخر[1] ؟! وفي مصر مجدِّدون إن لم يستطيعوا القيام بالقضاء على الإسلام ومعالمه بسيوفهم فهم قادرون على القيام به بأقلامهم » .

نعود إلى ما نحن بصَدَدِه :

ثم إنّي أختارُ في غير النوادر من البَنَات أنْ يكونَ تعليمَهُنَّ مقصوراً على ما يهمُّهُنّ في تدبير منازِلِهِنَّ أو تربِيَة أولادِهِنّ وتهذيب أخلاقِهِنّ ، وعلى قواعد حِفْظِ الصحّة والانتظام والاقتصاد ، وخلاصتُهُ إعدادُهُن لأن يكنَّ خيرَ أمّهاتٍ وخيرَ زوْجات ، لا ليكُنَّ عَدْلاً للرجال في جميع الأعمال ، لأنَّ ذلك لا يمكُنُ ولا يَنْفَعُ ، ودعوى مساواتهن بالرجال علة معنى أنَّ المرأة تَصْلُحُ لكلِّ ما يَصْلُحُ له الرجل كما نقلتْ إحدى الكاتبات الشهيرات بمصر عن أفلاطون الحكيم ، وكَتَبَتْه بجنب عنوان مقالها المنشور في الأهرام : « ليس من عَمَلٍ في نظام الهيئة الاجتماعية تختصُّ به المرأة كامرأة أو يختص به الرجل كرجل ، لأنّ الطبيعةَ ساوت بين الرجل والمرأة فيما منحتهما من النِّعَمِ والمواهب ، ولذلك يحقُّ للمرأة أن تقوم بكلِّ عَمَلٍ يقوم به الرجلُ رغم كونها أضعف جسماً منه » ـ دعوى فارغةٌ ، أفَضْتُ في إبطالها بعضَ الإفاضة في المقال الموضوع لمسألة تعدّد الزوجات ، مع أنّ أفلاطون يناقض نفسه عند دعوى المساواة ، ويعترف بكون المرأة أضعف جسْماً من الرَّجُلِ ، فهل ليست زيادة الحظّ في القوة الجسمانية من نِعَمِ الفِطْرَةِ ومواهبها ؟ مع أنّ الامتياز بزيادة القوة هو عنوان السيادة في العالم ، به تُفْتَحُ البلاد ، ويَحْكُم الأممُ بعضُهم

(١) وفي اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخر إشارة إلى هذا المعنى .

على بعض ، فَحسْبُك ذلك في نَقْضِ دعاوى المساواة ، ولذا قال الشاعر :

خَلَقَ الله لِلْحُرُوبِ رجَالاً   وعَلى الغَانِيَاتِ جَرُّ الْذُيُولِ

وفَضْلاً عن ذلك ، فلو فُرِضَ بلوغُ المرأةِ من مساواة الرجل مَبْلَغَ أن تَصْلُح لكلّ ما يَصْلُحُ له ، فهي لا تَقِفُ في حدّ المساواة به بل تفوقُه ، لأنَّ الرجل لا يَصْلُح لكلّ ما تصلُحُ له المرأة ، فهو لا يقدر على حَمْل الجنين في بطنه ، وولادة الولد ، وإرضاعه ، وحضانَتِهِ ، ومحبَّتِهِ ، وخِدْمتِهِ ، والحنان والشفقة عليه ؛ كما تحضنه المرأة وتحبه وتخدمه وتحنُّ وتشفق عليه ؛ فدعوى المساواةِ للمرأة المُنْتَهِيَة إلى تفوُّقِها عليه تستَلْزِمُ خلاف المفروض ، وهو باطِلٌ ، ويستبين منه بطلان الدعوى أيضاً .

وقد رأيتُ الكاتبةَ التي استشهدتْ بكلام أفلاطون على مساواة المرأة بالرجل تحوّلت في مقالتها المشار إليها من دعوى المساواة إلى دعوى تفوُّق المرأة على الرجل ، حيث قالت : « اختصاصُنا بالأمومة معناه أنا زوِّدْنا بامتيازٍ عظيم عن الرجل ، بما يستلزمه ذلك الامتياز من مواهب وقوى وتصرفات . ذلك إلى جانب مشارَكَتِنا الرجل فيما اختَصَّ به » وعند الصفح عن دلالة هذا الكلام على أن دعوى مساواة المرأة بالرجل التي طالما اجتهد في إثباتها المجتهدون تُبْطِلُ نَفْسَها ، فليستعدّ محامو المرأةِ من الرجال بخَيْلِهم ورجْلِهم ، فقد أتيح لهم واجبٌ جديدٌ من إثبات رجحانِها على الرجل فضلاً عن دعوى تساويهما . ولعلّ مجاوزتهنّ درجة المساواة بالرجال إلى رتبة التقدّم والتفوق خولَتِ المرأةَ العصريةَ حقَّ الزيادة في سفورها على سفور الرجل أضعافاً مضاعفةً ، حتى بَرَزَتْ في الأندية والمحافل نصف عُرْيانة !!! .

وإذا عُدْنا إلى جَدّ القول ، فهذه الحالة وحدها ، أعني : توغُلَ النساء حديثاً في السفور أمام الرجال ، وفيما يحاكيه من التبرُّج قديماً وحديثاً ، التوغل الذي عُنينا بِلَفْتِ النظر إليه في مقالتنا هذه ، والذي لا مِراءَ في أنَّ الغَرَضَ منه اكتساب المكانة

لهنَّ عند الرجال مما يدلُّ دلالةً باهرةً على احتياجهنّ واستنادِهنَّ إليهم في الحياة ، والذي لا تستغني عنه عامّتُهُنَّ وخاصتُهُنَّ وقديمتُهُنَّ وحديثتُهُنَّ ، والذي لا يقابلهُنَّ الرجال بمثْلِهِ ، مع أنَّ حاجَتَهُم إليهنَّ في الميول الجنسية ليست بأنقصَ من حاجتهنَّ إليهم إن لم تكُنْ أشدّ ، فتوغّل الحديثة في السفور والتبرُّج أمام الرجال ظاهرٌ ، والقديمة المحتجبة أيضاً تتوغل في السفور والتزين أمام رَجُل تختصُّ به ، أعني زوجَها ، حتى المرأة التي تُنفِقُ ثمَناً على زَوْجِها في سبيل زواجِها به وتعطيه (دَوْطة) عكس الزواج الإسلامي الذي يُعطِي فيه الزوجُ زوجتَه مَهْراً ، تُزَفُّ إلى زوجِها وتتبرَّج له ، ولم يسبق في الدنيا أن رجلاً زفَّ متبرِّجاً إلى زوجته كما تُزَفُّ العروس إلى عريسها ! ولن يأتي عليه هذا الموقفُ في الزمان الآتي ، فالتبرُّجُ وُجِدَ في الدُّنيا مع المرأة ، ويفنى بفنائها ، ولن يغيِّرَ هذا النظامَ الغريزي الاجتماعي أيُّ انقلابٍ يحدُثُ في المرأة من التعليم والتكامل والاشتراك في أنحاء العمل مع الرجل ؛ فهذا التوغُّلُ منهن في السُّفورِ والتبرُّجِ الحديثين أمام الرجل ، ورسوخ الزينة فيهنّ ، بحيث امتزجت بدمائهنّ وأرواحهِنّ ، هذه الحالة المشهودة وحدها كافية في الدلالة على أنَّهُنَّ خُلِقْنَ للرجالِ أكثر من كلِّ شيْءٍ يُنْبِىءُ عن الاستقلال ، في حين أنَّ الرجال خُلِقُوا للقيام بوظائِفِهِمْ في الحياة ، فأيْن مساواتهنّ بالرجال بَلْهَ توقفهن عليهم ؟! وأين قول أفلاطون الحكيم أو قول كاتبة المقالة المشار إليها (زينب الحكيم) من قول القرآن الحكيم : ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف /الآية ١٨] وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [٣٠ سورة الروم /الآية ٢١] فلو اجتمعت الإنس والجنّ وشياطين الزمان على أن يأتوا في تحديد موقف المرأة في الحياة بأبلغ من هاتين الآيتين ما استطاعوا ، ثم لا ينقصُ هذا الموقف ما تستحقّه من الاحترام الفائق ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾ [٤٦ سورة الأحقاف /الآية ١٥] وقال ﷺ : « أُمَّك ، ثُمَّ أُمَّك ، ثم أُمَّكَ ، ثُمَّ أَبَاك » وقال : « الجنَّةُ

تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ » .

وفي الآية والحديثين إشارةٌ إلى أنَّ أشرفَ أوْصاف المرأة كونها أمّاً ، وبه تمتازُ وتتقدَّم على الرجل عند المقارنة بين الجنسين ، ويمتلء فراغ نقصانها بالنسبة إليه امتلاءً يذهب بها من النقصان إلى الزيادة والرُّجحان ، لا أنه ينضمُّ إلى المساواة الحاصلة بدونه ! فيقلبها زيادة كما زَعَمَتِ الكاتبة ! .

« تـمَّ »

السفور والخلاعة

لمّا اطّلَعَ الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النَّجْمِي على هذه الفصول النفيسة في صحيفة « الفتح » ، جاشَتْ شاعِرِيَّتُهُ بالقصيدة الآتية :

زَعَمَ السُّفُورَ وَالاخْتِلاطَ وَسِيلَةً   لِلمَجْدِ قَوْمٌ في المَجانَةِ أَغْرَقُوا
كَذَبُوا مَتَى كَانَ التَعَرُّضُ لِلْخَنَا   شَيْئاً تَعِزُّ بِهِ الشُّعُوبُ وَتَسْبِقُ
أَيَكُونُ كَشْفُ السَّوْأَتَيْنِ فَضِيلَةً   فَيُذِيعُها هَذَا الشَّبَابُ الأَحْمَقُ
مَا بَالُهُمْ وَالبِنْتُ قَدْ فُتِنَتْ بِمَا   قَالُوا وَحَلَّ بِها الجُنُونُ المُطْبِقُ
وَبَدَتْ مَقاتِلُ عِرْضِهَا لِرُمَاتِهِ   حَتَّى لَهُمْ بِهِ الجَبانُ الأَخْرَقُ
وَالْقَوْلُ أَصْبَحَ في الخُرُوجِ لَهَا فَلا   كَف تَكُفُّ وَلا رِتَاجٌ يُغْلَقُ
كَرِهُوا الزَّوَاجَ بِهَا وَبَاتَتْ سُوقُهَا   بَعْدَ التَبَذُّلِ عِنْدَهُم لاَ تَنْفُقُ
مَا خَطْبُهُم كَلِفُوا بِنَزْعِ حِجابِهَا   وَتَكَلَّفُوا فِيهِ البَيَانَ وَنَمَّقُوا
وَتَنَاوَلُوا بِالضَّعْفِ مِنْ حَاجَاتِنَا   وَاللِّينِ مَا هُوَ بِالصَّرَامَةِ أَخْلَقُ
أَغَدَتْ مَشَاكِلُنَا الكَبِيرَةُ كُلُّهَا   ذَيْلاً يُجَرْجِرُهُ السُّفُورُ المُطْلَقُ
أَمْ أَنَّهُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ وَغَرَّهُمْ   بِبَرِيقِه هذا الجَدِيدُ المُخْلِقُ



أَشَبَابَنَا المَرْجُوَّ صَيْحَةُ جَازِعٍ   أَغْرَى بِهَا هَذَا البَلاءُ المُحْدِقُ
وَنَصِيحَةٌ يُفْضِي بِرَائِعِ سِرِّهَا   لِقِوَامِ نَهْضَتِنَا مُحِبٌّ مُشْفِقُ
لاَ تُرْهِقُوا سَمْعَ الخَفِيِّ لِقَالَةٍ   أَبَداً بِهَا بُومُ البَطَالَةِ تَنْعِقُ
لَمْ يَقْصُدُوا خَيْراً بِهَا ، لكِنَّهُمْ   رَأَوْا القَوِيَّ يُسِيغُهَا فَتَمَلَّقُوا
وَلَرُبَّمَا اجْتَرَحَ القَوِيُّ خَطِيئَةً   فَمَضَى الضَّعِيفُ بِمَدْحِهَا يَتَشَدَّقُ

قُوا أَهْلَكُمْ وَنُفُوسَكُمْ عَاراً إِذَا ... لَمْ تَتَّقُوهُ بِغَيْرِكُمْ لا يَعْلَقُ
وَتَنَاوَلُوا بِالزَّجْرِ حُمْراً كُلَّمَا ... هِيجَتْ إِلى مُتَعِ الإِبَاحَةِ تَنْهَقُ
لَيْسَ التَّمَدُّنُ أَنْ نَرَى رُوحَ الحَيَا ... بِيَدِ الخَلاعَةِ كُلَّ يَوْمٍ تَزْهَقُ
وَالْبِنْتُ يَدْفَعُهَا بِرَاحَتِهِ الهَوَى ... فَتَرُوحُ تَهْوَى مَنْ تَشَاءُ وَتَعْشَقُ
لَكِنَّهُ العِلْمُ اهْتَدَى بِضِيَائِهِ ... غَرْبُ البَسِيطَةِ حِينَ ضَلَّ المَشْرِقُ

النَّجْمِي

المحتوى

